رجل الدولة

عبدالله مبارك الصباح

ملامح شخصية .. إشراقات إنسانية



علي المسعودي

رجل الدولة

عبدالله مبارك الصباح

ملامح شخصية .. إشراقات إنسانية

علي المسعودي

إهداء:

إلى البيت المباركي الكريم...

سعاد..

والأولاد..

والأحفاد..

الطبعة الأولى

الكويت - 2012

صورة الغلاف: الشيخ عبدالله المبارك وإلى يمينه الشيخ صباح الأحمد وإلى يساره الشيخ جابر الأحمد، خلال الأربعينيات من القرن العشرين.

تقديم

البحث في سيرة الرجال الكبار.. هو بحث في سيرة وطن..
وقد استمتعت خلال زمن بتقليب أوراق الشيخ عبدالله مبارك الصباح.. طيب الله ثراه..
وعلى ضفاف السيرة السياسية لرجل جاد وحازم حقق إنجازات كبيرة حققها على مستوى الوطن الصغير.. والوطن الكبير.. كانت تبرز ملامح شخص لطيف المعشر، بشوش، مرح.. بقلب دافئ يضفي مشاعره على البعيد والقريب..
شديد الإخلاص لأسرته..
يشملهم برعايته ونصحه ومتابعته
يتتبع آلامهم.. مطالبهم.. مناسباتهم..
يقترب من كبار السن.. ويقرب منه كبار السن..
ولائمه دائمه.. وسجاياه كريمه..
وقد مضى زمن طويل على رحيله.. ومازلت بين يوم وآخر أسمع قصة جديدة يرويها عنه شخص من هنا.. وموقف شهم يحكيه عنه شخص هناك..
فالقادة الكبار هم ليسوا آباء ابنائهم فقط.. بل هم آباء شعوبهم كذلك..
من هذا المنطلق نجمل أحاديثنا عنهم بصفته آباء لنا عملوا من أجلنا.. وسهروا من أجل وطن.. غرسوا أشجاره ولما أينعت حرسوا ثماره
لكن.. أجمل من كل ذلك أحاديث عائلته عنه..
تلك العائلة التي انطلقت من شخصين هما 0عبدالله وسعاد" وأصبحت اليوم قبيلة من النخيل والصقور
وهي تلك الأحاديث الكثيرة التي لاتنقطع.. ولا تخبو..
وإذا رغبت يوما أن تسعد فردا من أفراد طالبيت المباركي".. فافتح له بابا يطل على فضاء "صقر الخليج"..

علي ..

شيء من عطر السيرة



الشيخ عبد الله الابن الأصغر لمؤسس الكويت الحديثة الشيخ مبارك الصباح (مبارك الكبير) وكان له خمسة أخوة بالإضافة إلى عدد من الشقيقات.

تختلف التقديرات حول التاريخ الدقيق لولادة ، الشيخ عبد الله مبارك وترجح د . سعاد الصباح في كتابها " صقر الخليج " الذي يوثق قصة حياة زوجها الشيخ عبد الله مبارك أن ولادته كانت في 23 اغسطس من عام 1914 وفقاً لشهادة الشيخ أحمد الجابر المسجلة .

نشأ الشيخ عبد الله مبارك وتربى في بيئة قبلية صحراوية تعتد كثيراً بالأصل ، واستقى من هذه البيئة سجاياه وقيمه وأخلاقه ومبادئه القويمة التي كانت نبراساً له في طفولته ، كما كانت أرضية صلبة وقف عليها بثبات في شبابه ، ومنها أستمد ألقه وتميزه كرجل دولة حين باشر مسؤولياته الحكومية المتعددة .

لم تتأخر إطلالة الشيخ عبد الله مبارك على الشأن العام ، فقد ساهمت نشأته البدوية الراسخة في تأصيل قيم الصبر والشجاعة والإقدام في إهابه ، وقد وُضِعَتْ هذه الشمائل موضع الاختبار قبل أن يطأ عتبة الشباب ، إذ عهد إليه وهو يافع لم يتجاوز بعد الثانية عشرة من عمره القيام بمهمة المشاركة في حراسة السور الذي كان يحيط بمدينة الكويت، فتولى مع أقرانه مسؤولية حماية المدينة من المعتدين . ويذكر في هذا المقام أن مراقبة بوابة (دروازة) الشامية تندرج ضمن صلاحيات الشيخ ، وهي مهمة ليست يسيرة لمن كان في عمره ، وتنم هذه الواقعة عن قدرة غير عادية على تحمل المسؤولية والاضطلاع بأعبائها . وقد أكسبته تلك المهمة سمعة طيبة تمظهرت بالصرامة وعدم المجاملة في تجاوز القواعد المرعية بالبوابة التي أشرف عليها .

*** بدايات المشاركة في الحياة العامة**

تشير د . سعاد في الكتاب الذي سلف ذكره أن الوثائق البريطانية تذكر الأدوار التي شغلها الشيخ عبد الله مبارك بدءاً من حقبة الأربعينات من القرن المنصرم ، لكن من المعروف أن مشاركة الشيخ في الحياة العامة بدأت مع توليه دور المساعد للشيخ علي الخليفة العبد الله الصباح الذي كان حاكما – محافظاً – لمدينة الكويت ومديراً لدائرة الأمن فيها ، وأن الشيخ عبد الله كان في الثلاثينات مسؤولاً عن مكافحة التهريب ، في زمن لم تكن فيه مؤسسات وأجهزة ، وكان هـذا العمل يتطلب حكمة واسعة في إدارة العلاقة بالقبائل ، بالإضافة إلى معرفة ودراية بالبادية ومساربها والتي هي المسرح المحتمل لتهريب السلع الذي غالباً ما كان يؤدي إلى نشوب أزمات بين القبائل . واستطاع الشيخ أن يدير هذه الأزمات بحنكة وواقعية . واستمر صعود نجم الشيخ في الحياة السياسية وتنوعت مسؤولياتـه . وعندما أصدر الشيخ عبد الله السالم أمير البلاد مرسوماً في عام 1958 بتشكيل المجلس الأعلى الذي تكون من سبعة عشرة شخصاً من رؤساء الدوائر الحكومية ، **كان ترتيب الشيخ عبد الله مبارك هو الثاني بعد الأمير مباشرة** ، وحدد المرسوم اختصاصاته في " رئيس دائرة الأمن العام وتتبعه إدارة الجنسيـة والجـوازات ، وإدارة الإذاعـة والتلفـاز، بالإضافة إلى بعض الدوائر الأخرى " ، وأنيط بشخصه تطبيق قرارات المجلس الأعلى .

ويرد في كتاب " صقر الخليج " ما يلي : " الحقيقة التاريخية التي توضحها بجلاء فصول هذا الكتاب أن الشيخ عبد الله المبارك أصبح في نهاية الخمسينات الشخصية البارزة في حكم الكويت ونائب الحاكم والساعد الأيمن له . وبفضل جهوده ، تقدمت أساليب الحكم والإدارة . .

واحتل الشيخ هذه المكانة نتيجة عمله لسنين طويلة ، ولإسهامه في بناء المؤسسات وتحديثها وتطويرها . وعلى مدى ثلث قرن من الزمان ، باشر خلالها أدواره المختلفة في أروقة السلطة ودوائر الحكم ، بدءاً من حراسة السور وهو صبي ، وصولاً إلى تسلمه مقاليد ومسؤوليات الرجل الثاني في الكويت ، فقد عاصر الشيخ عبد الله المبارك مرحلة التحول الكبرى من البداوة إلى التحضر ، ومن صيد اللؤلؤ والتجارة إلى إنتاج النفط .

*** مسيرة التأسيس**

كانت الفترة التاريخية الممتدة من عام 1910 إلى عام 1950 بالنسبة للكويت مرحلة " مخاض " أما مرحلة الخمسينات التي لعب الشيخ عبد الله المبارك دوراً محورياً في تشكيل أحداثها ، فيصفها البعض بأنها مرحلة التفتح ، وكان بناء المؤسسات أحد أهم معالمها . وكانت عملية البناء هي المدخل الحقيقي لترسيخ هيكل دولة الكويت والمضي قدماً في عملية تطويرها وتحديثها وتنمية مواردها الاقتصادية والبشرية ، وتوفير الأمن وسبل الارتقاء لشعبها المسالم . وكان الشيخ عبد الله المبارك بحق أحد رعاة مرحلة التفتح الفاعلين ، وسنفرج هنا على بعض ملامح هذه الرعاية .

*** الأمن العام والجيش**

تطلبت مسؤولية مكافحة التهريب التي تولاها الشيخ عبد الله المبارك إقامة علاقات وثيقة بالعشائر وشيوخها ، وكان عماد أمن الكويت الخارجي يستند على " الفداوية " وهم من المسلحين البدو الأشداء الذين كانوا نواة الجيش الكويتي الذي انشأه الشيخ

عبد الله مبارك سنة 1949 . وكان رجلنا على معرفة لصيقة و وثيقة بهؤلاء الأفراد بحكم علاقته بالبدو والعشائر ومسؤوليته عنهم .

وبعد أن شغل الشيخ عبد الله المبارك وظيفة الساعد الأيمن لرئيس دائرة الأمن العام الشيخ علي الخليفة الصباح لسنوات عديدة ، تسلم الرئاسة بعد وفاة الأخير في عام 1942 وشرع في استكمال كوادرها وأطرها . وفي هذا السياق انشأ الشيخ عبد الله المبارك أول مدرسة للأمن العام وتبرع بمنزل والدته في شارع السور كمقر لها . وبطلب من أمير الكويت أعد العدة لإنشاء إدارة تتولى شؤون الجوازات والسفر ، وتم افتتاحها رسمياً في غرة يناير عام 1949 . وعمل على تهيئة الظروف الملائمة لتسليح قوات الأمن العام بأحدث الأسلحة . ويبدو جلياً أن طبيعة عمل دائرة الأمن العام آنذاك تشبه إلى حد بعيد عمل الجيش حالياً .

وفي عقد الخمسينات ألحقت بهذه الإدارة أقسام متخصصة مثل " قوة خفر السواحل " التي تأسست عام 1954 ، وهو العام الذي عين فيه الشيخ عبد الله المبارك قائداً عاماً للجيش ، حيث عمل على تنظيم استعراض عسكري لهذه القوة الوليدة ، وتابع تدريباتها ومناوراتها واشترى لها الأسلحة ، واهتم بالدور الاجتماعي للجيش وبالإعلام العسكري ، وتمثل هذا الاهتمام بصدور مجلة " حماة الوطن " . وفي فترة الأعوام الثلاثة السابقة للاستقلال (1959 – 1961) نشط الشيخ عبد الله في مجال إبرام عدد من صفقات السلاح مع بريطانيا عبر زيارات متكررة ، كما سعى لبناء القوات البرية والبحرية ، تحرك أيضاً لبناء سلاح الجو الكويتي . لكن هذا المسعى الأخير اصطدم بالعراقيل التي وضعتها السلطات البريطانية التي لم تكن راغبة في التخلي عن دورها الأمني .

*** الطيران المدني**

وتذكر الوثائق الاميركية أن الشيخ عبد الله المبارك افتتح نادي طيران الكويت ومدرسة الطيران في اواسط شهر مارس من عام 1953 ، وترأس احتفالاً كبيراً بمناسبة تخريج أول دفعة من الطيارين الكويتيين في ديسمبر عام 1954 ، وكانت حصيلة هذا التحرك والجهد تشكيل النواة الصلبة للعاملين في شركة طيران الكويت وسلاح الجو الكويتي . وتكلل هذا الجهد بوصول أولى طائرات الخطوط الجوية الكويتية المحدودة ، وهي طائرة كاظمة ، وذلك في السادس عشر من شهر مارس عـام 1954 . وبمـوجب صلاحياتـه كقائم بأعمال الحاكم ، أعلن الشيخ عبد الله المبارك في أكتوبر من عام 1956 عن إنشاء دائرة الطيران المدني وربطها بدوائر الأمن تحت إشرافه . ويتضح مما سبق ، أن الشيخ عبد الله قام بدور رائد في رسم ملامح هذه المؤسسة الحيوية ، وفي تشكيل أطرها ووظائفها ، وفي وضع قواعد الطيران وتنظيماته ولوائحه وضوابطه .

*** الإذاعــة**

احتاجت إذاعة الكويت إلى عقود من الزمن لتستكمل مسيرتها والقيام بوظيفتها الإعلامية كما هو المرتجى والمأمول وكانت بدايتها متواضعة للغاية ، وفي غرفة تابعة لمبنى إدارة الشرطة والأمن العام التي كان يرأسها الشيخ عبد الله المبارك ، حيث بدأ البث الإذاعي في العام 1951 لمدة ساعتين يومياً . وتكون كادرها الوظيفي من موظفين أثنين فقط ، وترأس الإذاعة الشيخ عبد المبارك نفسه ، ووضع الأسس القويمة لتطويرها وزيادة ساعات البث اليومية لها . وما كان لهذا الصرح الإعلامي كما هو عليه الحال اليوم أن يظهر لولا اللبنة الأولى التي رعاها رجلنا في تلك

الغرفة المتواضعة ، وذلك الجهاز الإذاعي المتواضع الذي انطلقت عبره لأول مرة عبارة : هنا الكويت .

*** التعليم والمعارف**

ارتكزت بدايات التعليم في الكويت في أواخر القرن التاسع عشر على دور المساجد والكتاتيب التي اقتصر دورها على تحفيظ القرآن وتعليم مباديء القراءة والكتابة والحساب وتوالى افتتاح المدارس النظامية منذ عام 1911 (المباركية) ، وبعد ذلك في عام 1920 (الأحمدية) ، ثم في عام 1926 (السعادة) . لكن انطلاقة التطور الحقيقي للتعليم بدأت في عام 1946 مع بدء تصدير النفط وتخصيص ميزانية ملائمة للإنفاق على التعليم ، وصلت إلى سبعين مليون روبية للعام الدراسي 1955 – 1956 ، أي حين كان الشيخ عبد الله المبارك يترأس مجلس المعارف .

وخلال رئاسته لهذا المجلس أصدر الكثير من القرارت المتعلقة بالمناهج والبعثات ووضع القوانين التنظيمية واللوائح لسير العملية التعليمية ، ورفدها بالمدرسين المؤهلين ، وتهيئة البنى التحتية والخدمات المرافقة التي اسهمت في توسيع النشاطات التعليمية والتربوية والفنية . وتماشى كل ذلك مع سجايا وخصال الشيخ عبد الله المبارك المحب بالسليقة للفن والشعر ، وشغفه الشديد – مثله مثل معظم أهل البادية – بأحاديث الأدباء والحكماء والشعراء .

وفضلاً عن هذا الدور المتعلق بتوسيع وتطوير القاعدة التعليمية ، لا يمكن إغفال دور الشيخ عبد الله المبارك في حفز تشكيل الجمعيات والنوادي الثقافية والرياضية وكل الهيئات التي تندرج تحت شعار مؤسسات المجتمع المدني .

*** موقفه من العروبة والوحدة**

يعتبر الشيخ عبد الله مبارك من ابرز السياسيين الخليجيين الذين حافظوا على علاقاتهم الوثيقة بالبلاد العربية ، وعملوا على تطويرها ودعمها باستمرار . كان الشيخ مؤمناً بالعروبة والتضامن العربي بشكل طبيعي وتلقائي ـ ولم يكن محتاجاً إلى – تنظير – أو – فذلكة فلسفية لكي يدرك معنى العروبة ، فقد كانت جزءاً طبيعياً من البيئة التي تربى فيها ، والمناخ الذي عاش فيه ، وأثر على عقله وتفكيره و وجدانه . . . إن عقل هذا الرجل وفؤاده قد ارتبطا بالعرب . . .

وورث الشيخ عبد الله مبارك هذا الانتماء العروبي من والده مبارك الكبير الذي لم يكن يخفي ميله الشديد للوحدة العربية وحرصه الشديد على استقلال العرب والعمل على الخروج من المظلة العثمانية وقد قرن الشيخ عبد الله المبارك القول بالفعل حين كان يجاهر بالانتماء للعروبة ، إذا بادر دائماً إلى دعم الأشقاء العرب سياسياً واقتصادياً ، وقام بإلغاء تأشيرات الدخول إلى الكويت بالنسبة للعرب ، وقد ترسخ هذا الشعور الوجداني العروبي بعد نكبة فلسطين التي كان لها صدى عميقاً في ضميره . وكانت الكويت بسبب قناعة الشيخ عبد الله مبارك الراسخة سباقة إلى تطبيق قرارات الجامعة العربية حتى قبل انضمامها الرسمي لها . ولذا استطاع أن يوطد علاقات الكويت بمحيطها العربي ، ولم يدخر وسعاً في التأكيد على موقف الكويت التضامني مع أي جهد تنسيقي نبيل بين الأقطار العربية ، مع التأكيد على أن الكويت لا يمكن لها أن تكون طرفاً في النزاعات العربية . وعززت شخصيته العروبية موقف الكويت هذا ، وهو موقف متوازن أبقى الكويت بعيدة عن المحاور ومراكز الجذب والاستقطاب المتمثلة بقيام الوحدة السورية المصرية من جهة ، وقيام الاتحاد الهاشمي بين العراق والأردن من جهة أخرى . وسمح هذا الموقف العقلاني للشيخ عبد الله مبارك بإقامة صلات طيبة مع لبنان والسعودية وسورية والأردن

والجزائر والمغرب ومصر والعراق ، وأحاط نفسه بعلاقات شخصية وطيدة مع رهط كبير من الزعماء العرب آنذاك .

*** علاقاته مع الدول العربية والزعماء العرب**

لم يكن من قبيل المصادفة أن الشيخ عبد الله المبارك لم يسافر قط إلى إيران والهند وباكستان خلافاً لما كان هو المعهود ، وأن زياراته الكثيرة تركزت على العراق وسورية ولبنان ومصر والسعودية وبلدان الخليج الأخرى .

واحتل **لبنان** مكانة خاصة في قلب الشيخ ، وكانت زياراته لهذا البلد مشحونة بالنشاطات الرسمية والاجتماعية والشخصية ، مع هيئات وأفراد ، ولم يتوان عن تقديم الدعم لمن يستحق . وتعرف عن قرب على عدد من رؤساء الوزراء منهم : رياض الصلح ، صائب سلام ، عبد الله اليافي ، رشيد كرامي ، أحمد الداعوق ، حسين العويني وأمين الحافظ . واحتفظ بصداقات مع صحافيين كبار منهم عفيف الطيبي ، سليم اللوزي ، سعيد فريحة وغيرهم ، وقد منحه فخامة رئيس الجمهورية فؤاد شهاب الوشاح الأكبر لوسام الاستحقاق اللبناني .

وكان من المألوف أن تتوطد علاقة الكويت **بالسعودية** وهي علاقة تاريخية ترقى إلى عهد الراحلين مبارك الكبير والملك عبد العزيز آل سعود . وقد تعززت هذه العلاقة بحكم الصداقة الوثيقة التي ربطت الشيخ عبد الله مبارك بالملك سعود ، وحين خرج الثاني من السعودية ، لعب الأول دوراً في اقناع الرئيس عبد الناصر كي توافق مصر على إقامة الملك في ربوعها وسافر الشيخ عبد الله كثيراً إلى سورية ، واستقبل هناك دائماً بالحفاوة والتقدير ، وقلده الرئيس أديب الشيكلي في عام 1952 وسام الاستحقاق السوري من الدرجة الممتازة . وتأكيداً على الثقة المتبادلة بين الكويت وسورية ، ساهم الشيخ في الدعوة إلى التبرعات للجيش السوري ، وتبرع

هو شخصياً لهذا الجيش أثناء زيارة له لتهنئة الرئيس شكري القوتلي بانتخابه رئيساً.
وقام الشيخ بزيـارة رسميـة **لـلأردن** فـي شهر فبراير عام 1960 ، وتبرع للحكومة وللجيش بدعم مالي لتقويـة موقف هذا البلد وحثه على الدفاع عن حقوق العرب المغتصبة في فلسطين المحتلة .

وحظيت **الجزائـر** بلد المليون شهيد بتأييد الشيخ عبد الله مبارك المطلق ، وتبرع للثورة وشارك من موقعه كقائم بأعمال الحاكم باحتفال أقيم في ذكرى اندلاع الثورة في نوفمبر 1957 ، وكان الشيخ على رأس مستقبلي الوفد الجزائري الذي زار الكويت برئاسة السيد فرحات عباس رئيس الحكومة المؤقته .

ودعم الشيخ عبد الله مبارك جهود الملك محمد الخامس ملك **المغرب** في سبيل انهاء احتلال فرنسا لبلاده ، وربطته بالملك علاقة وثيقة . وحين سافر الشيخ إلى المغرب في عام 1962 وكان خارج السلطة وقتذاك ، أمر الملك الحسن الثاني باستقباله وأسرته استقبالاً رسمياً وخصص له قصراً للضيافة والتقى الاثنان في تطوان ، وفي ذلك إشارة لعمق احترام المسؤولين لشخصه .

أما مصر الكنانة العزيزة على قلب كل عربي ، فقد كانت عند الشيخ عبد الله مبارك منارة الحضارة وصاحبة التاريخ والريادة والدولة القوية المناضلة . فكما تبرع لأقطار عربية أخرى وجيوشها ، بادر أيضاً في عام 1953 إلى الدعوة لحملة اكتتاب واسعة في الكويت للمساهمة في تسليح الجيش المصري . وكان الشيخ موضع حفاوة وتقدير من كل المسؤولين ، سيما الرئيس عبد الناصر الذي قلده أعلى الأوسمة المصرية ، والرئيس أنور السادات ، واستمرت العلاقة الشخصية بين الشيخ عبد الله المبارك والرئيسين عبد الناصر والسادات بعد استقالته من الحكم .

وتشير الوثائق إلى أن الشيخ عبد الله مبارك آمن دائماً جميع الكويتيين بضـرورة الحفـاظ على علاقات حسن جوار مع العراق ، البلد العربي الجار ، وكان يؤمن

دائماً بامكان العثور على حلول معقولة للمشاكل العالقة بين البلدين ، إلا أن الظروف بسبب تعسف القيادة العراقية آنذاك لم تحقق المرتجى . وكان وقع كارثة الغزو على قلب الشيخ وعقله أليماً وثقيلاً ، وكان أكثر ما يفزعه كما يقول المقربون منه هو خاطر أن يلقى ربه قبل تحرير الكويت . لكن إرادة الله شاءت أن تتحرر دولة الكويت وهو على قيد الحياة ، وأكرمته العناية الألهية إذ دفن جثمان الشيخ عبد الله المبارك الطاهر في ثرى الكويت العزيزة والغالية على قلبه رحمه الله رحمة واسعة يوم السادس عشر من حزيران (يونيو) 1991 .

عبد الله المبارك في وجدان الأسرة



1- حديث رجل لرجل..

هنا مقالان مهمان يسطرهما الشيخ مبارك عبدالله المبارك الصباح.. عن والده الراحل طيب الله ثراه، نشلرهما في سنتين متواليتين..

وأهمية المقالين تتجاوز المشاعر النبيلة الأصيلة التي يحملها والد لولده..

لتكون ترسيخا لأبوة كبيرة تجاوزت أبوة العائلة.. لتكون بمثابة أبوّة وطن..

وفي كلا المقالين يتضح تأثر الشيخ مبارك بالأوضاع الآنية للوطن.. ليقارنها بما أنجز والده ومأأورث من قيم.. ومبادىء

وبعد عشرين عاما على الرحيل يبدأ الشيخ مبارك الكتابة إكمالا لسطور حبر كثيرة وغزيرة سكبتها د. سعاد الصباح.. حبا ودمعا وسلاما.. واستجلاء لشمس تطل..

يكتب الشيخ مبارك مخاطبا الوالد الغائب الحاضر: (وقد حاول أكثر من حاكم ان يغير قناعاتك تجاه أهلك ووطنك ولكنك رفضت وقلت لهم انا لا أكون في يوم من الأيام خنجراً في ظهر أهلي ووطني فاحترموك. كنت كبيراً في كل شيء **..) وهو يسقط الواقع المر.. على التاريخ الحلو..**

والآني القاتم على الماضي المشرق..

وفي المقال الكثير من التفاصيل التي تستحق التأمل والتفكّر..

لننتقل في المقال الثاني الذي نشر في العام التالي للمقال الأول إلى حالة أخرى من حالات الخوف على الوطن.. والتخوف من الزمن.. الذي تغيرت فيه الكثير من المبادئ والمثل..

يكتب الشيخ مبارك عن جرحين متلازمين.. جرح مغادرة أب وقائد..

وجرح مغادرة زمن..

لكنه يعطينا أملا بجيل جديد واع من القادة الشباب يعون المسؤولية ويعرفون أن التحديات التي تواجههم اليوم.. ليست هي التي واجهت آباءهم من قبل.. فالزمن قد تغير.. والظروف تبدلت.. وآن للشباب أن يقودوا سفينة وطنهم إلى بر الأمان

إلى والدي



بقلم: مبارك عبدالله المبارك الصباح

أكتب إليك في ذكراك العشرين ذكرى رحيلك عنا ونستلهم من كل ذكرى لك تجدد الحياة وانبعاثك فينا مجموعة من قيم ومبادئ عشنا لأجلها وناضلت وغادرتنا آملاً أن تبقى معنا استمراراً لنهجك وهذا ما عاهدنا الله عليه وعاهدناك .

اكتب لك اليوم وفي داخلي يرتسم السؤال! لماذا بعد عشرين سنة على غيابك أكتب؟ وأجيب... انني أكتب لك، نعم لك وليس عنك... فمن كتب عنك طيلة هذه الفترة كان أدق تعبيراً وأكثر عمقاً وصدقاً... انها الوالدة الحنون... رفيقة دربك وشريكة حياتك... هي من كتب ما يليق بك وبتاريخك مخزوناً من الكتب والمقالات وقصائد الشعر في حياتك وبعد غيابك... والتي كنا نستشرف في كل خاتمة من خواتيمها اننا على موعد مع المزيد مما يزخر به تاريخك ويفيض به قلبها وقلمها.

أكتب لك يا والدي... يا من سكنت القلب وكان لك من العقل والفكر الحيز الأكبر.

تأخرت؟... نعم تأخرت...

ولكنني اليوم وفي هذه الظروف التي نعيشها أراني أعود لأبدأ من جديد، أفكرُ بصوتٍ عالٍ، وأقول... ما أحوجنا في هذه الأيام إليك؟ يا من كنت رجل المرحلة في كل محطة من محطات هذا الوطن الذي كان بالنسبة لكَ الأبُ والأمُ، الحلمُ والحقيقة، الحاضر والمستقبل .

أستذكرك ياوالدي في هذه الظروف الصعبة التي تعيشها الأمة العربية والتي كانت وحدتها بالنسبة إليك... الحلم الذي يجب ان نعمل من أجل تحقيقه. لكن يا والدي ما نراه... يباعد كثيراً بين الحلم والحقيقة، خصوصاً في ظل الغموض الذي يلف بعض الأقطار العربية، والتفكك الذي ينذر بتفتت الأوطان وفي ظل استئساد العدو الإسرائيلي... ولكن هناك قبس من نور يضيء قليلاً هذا الليل المظلم وهو ثورة الشباب الذي يتوق إلى التغيير ويصبو إلى الانعتاق من تخلف بعض الأنظمة والعبور إلى الدولة العادلة القادرة الحاضنة لكل أبنائها والمؤمنة بحق شعوبها بالحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان وإفساح المجال أمام الكفاءات الشابة لخدمة المجتمع بروح عصرية مبدعة بعيداً عن الخوف من الأجهزة القمعية التي ما زرعت إلا الفساد والتخلف والتعمية عن الحقائق.

رهانك يا والدي كان على الشباب أوليتهم قسطاً كبيراً من اهتمامك وقد كنت تعمل جاهداً على خلق جيل واعٍ متعلم يكتسب الخبرات ويتولى مراكز قيادية في مؤسسات الدولة من خلال تشجيعك للعلم والمعاهد المتخصصة في ميادين عدة، وبعد تركك كرسي الحكم بهدوء وكرامة وعزة نفس كنت ترسل البعثات الشبابية ولا تفرق بين ذكر أو انثى على حسابك الخاص وسجلت ذلك في وصيتك.

استذكرك يا والدي اليوم وأنا أرى قادةً تمارس أبشع أنواع الإجرام بحق شعوبها، تدمر مؤسسات الدولة ومقدرات الشعوب وتستحضر كل أنواع الأسلحة الدينية والمذهبية والفئوية وتشعل حروبا أهلية. كل ذلك من أجل المحافظة على السلطة غير

آبهين بما سيؤول إليه مصير بلدانهم... وأقول ما أحوجَنا إلى عبدالله المبارك ثانٍ - هذا الرجل الذي عاش كبيراً وتولى أرفع المناصب القيادية وكان قادراً أن يحتفظ بسلطاتها حتى آخر أيامه، لكن إيماناً منه بالحفاظ على الوطن بكل أطيافه متماسكاً منيعاً، تخلى عن كل شيء إلا وطنيته، وسلم الأمانة لغيره، كي يكمل المسيرة، ولم يتخلَ عن حبه للوطن ومواطنيه، بل كان حتى في غربته يحمل وطنه في قلبه وضميره أينما حل، ممارساً دوره في خدمة الوطن والكويتيين بما يمليه عليه الواجب. وقد حاول أكثر من حاكم ان يغير قناعاتك تجاه

أهلك ووطنك ولكنك رفضت وقلت لهم انا لا أكون في يوم من الأيام خنجراً في ظهر أهلي ووطني فاحترموك. كنت كبيراً في كل شيء وما بين قسوتك وتسامحك، ميزانك العدل في الرعية أبداً كنت حازماً في قراراتك حيث يقتضي الحزم والشدة ورقيقاً عطوفاً على الجميع بلا تفرقة يوم تكون الحالة الاجتماعية أولوية تساعد وتعطي بلا منة، شملت بعدلك ورعايتك جميع أبناء هذا الواطن حتى المقيمين كانوا يرون فيك عوناً لهم وملاذاً، كنت عفيف اللسان فلم ترضَ ان يتكلم على أهلك ووطنك أحد في مجلسك ،وقد حاول كثير من الصحافيين استدراجك رغم انك كنت في الستينات تمسك زمام الصحف في بيروت ولكنك رفضت ان يذكر أهلك ووطنك بسوء أو ان تمس كرامة أحد. ثلاثون عاماً وانت خارج الحكم والكويت وأهلها في قلبك.

ديوانك كان صورة مصغرة عن مجتمع الكويت يضم كل فئات النسيج الوطني، ما كنت تفرق بين بدو وحضر أو بين عائلة وأخرى تحترم الجميع وتساعد الجميع، أردت من ديوانك أن يكون الجامع الموحد المنتج وكثيراً ما اتخذت قرارات مهمة وتوحدت رؤى في مصلحة هذا البلد من ضمن التجمع الذي كنت تقيمه.

تلك كانت نظرتك لأي تجمُّع وملتقى وإلا فلا حاجه لهُ. تَجَمُع بعيد كل البعد عن التكتلات السياسية الصغيرة أو الفئوية الضيقة التي تزرع الشقاق والتنافر، ترفض الصراخ والصوت العالي لأنك تؤمن بالإصلاح الهادئ والتبصر في كل الأمور كبيرها وصغيرها فعندما تكون مصلحة الوطن هي الأساس فلا صوت يعلو على صوت الحكماء الذين يعرفون أين تكمن هذه المصلحة.

وإيمانك مطلقاً بان من رسمت ملامحه شمس الصحراء ورمالها وحددت معالم شخصيته طبيعة البادية وأصالتها، وعانى من الظلم ما عاناه وناضل في سبيل حرية بلده واستقلاله،

ودفع في سبيل وطنه الغالي والنفيس، لايمكن ان يكون في يوم من الأيام أسير مصالحه الشخصية وأطماعه السلطوية بل الحامي لهذا الوطن كل الوطن بكل فئاته ومقدراته.

والدي الحبيب. أشتاق إليك اليوم... كما في كل يوم... ولكن لانها الذكرى، أردت ان أعبر عما في داخلي. لقد ذقت مرارة يُتم الأب صغيراً ولكن ليس مثلك... فانت الذي لم يذق طعم الأبوة منذ عامه الأول، واجهت الحياة وحيداً بحلوها ومرها... مقداماً... كنت تخوض غمارها تواجه المصاعب والمطامع... وما أكثرها كانت من حولك، رغم ذلك أغدقت علينا بحنانك وعطفك وأعطيتنا ما لم يعطه الكثيرون ممن عاشوا في كنف أهلهم. وأنشأت عائلة متماسكة تسير على خطاك في كثير من الأمور، برعاية الوالدة التي ساعدتها أن تكون كما هي في مجالات التعليم والاجتماع، سيدة قوية تحملت المسؤولية الكبيرة بجدارة وأكملت المسيرة بما أتيح لها من مجالات وأَوْلَت اهتمامها ما كان يهمك في مجال التعليم وخلق جيل واعٍ سلاحه العلم والمعرفة. وأحاطت عائلتك برعايتها وحنانها وحكمتها حتى توصلها إلى الطريق الذي رسمته أنت لنا ولأبنائنا بكل صدق وأمانة.

والدي الحبيب أعاهدك على إكمال المسيرة مهما واجهتنا الصعاب وان أكون كما أردتني. وان خالفتك في بعض النصح ولكن أعلم أن روحك ستسامحني.

خالفت رغبتك ودخلت الحياة العسكرية لأنني مؤمن بها مدرسة للولاء والانضباط وعدت إلى رغبتك في تحصيل العلم إلى أعلى الدرجات ووصلت إلى حيث أنا وأعلم انك ستغفر لي فقد أحببت النهج الذي تربيت عليه أنت وأحببت فيك روح القائد وصورتك باللباس العسكري ودخلت مرحلة كنت أتمناها ولو تشبهاً ببعض مزاياك.

والدي الحبيب، أكتب إليك هذه الكلمات وأقول باسمي وأهلي وجميع محبيك اننا على خطاك سائرون، ولا خوف على وطن يؤمن به أبناؤه .

سيدي أقبل جبينك الموسوم بجرح غائر من أحد معاركك في الصحراء تدافع عن حدود الوطن وتذود عن سياجه... وطن هو وطن آخر في قلبك... رحمك الله أبي

نشرت في 15 يونيو 2011

إنه زماننا يا والدي وليس زمانكم



بقلم: مبارك عبدالله المبارك الصباح

يقولون ان المصائب تبدأ كبيرة ثم تصغر، وان الأحزان تتلاشى مع الوقت وتنسى، ولكن الذكرى تبقى وتكبر أحيانا، تحيا كقدر لا مفر منه، يبعث مع جديد ليحيي ما أغفله قدر الرحيل - انه صراع القدر مع القدر، صراع الحياة مع الموت، والكون في تجدد دائم ولا ينتهي، نعم انها الذكرى يا والدي... تتجدد، ومعها يتجدد الحزن على رحيلك عن هذه الدنيا الفانية الى دار الخلود الأبدية.

انها الذكرى الواحدة والعشرون على غيابك، وان كانت مدة طويلة في مقياس الزمن، هي قصيرة وقريبة في عمر الأحاسيس والمشاعر التي تسكن داخلنا وتشعرنا بأنك الحاضر أبدا ولم تغب.

كنت لنا في حياتك الأب الحنون... أعطيتنا بسخاء ورعيتنا بإخلاص ووفاء، ورسمت لنا حدودا كانت لنا المسار... كنت لنا في الحياة كل شيء... رحلت عنا وبقيت منك كل الأشياء الجميلة التي نحملها عنك لأسرتنا والمجتمع.

والدي الحبيب، صورك التي تملأ أرجاء المنزل، هي أجمل ما تقع عليه العين، دائما وفي كل نظرة تعني لنا الكثير وكأنها أصبحت لنا أيقونة نلجأ اليها في كل وقت، نخاطبك بألم وحسرة، وعزاؤنا أنك ترانا من العلياء وروحك باقية ترفرف فوق تراب هذا الوطن الذي عملت له بكل تفان وإخلاص.

والدي الحبيب، لا يسعني في هذه الذكرى إلا ان أتجاوز قليلا... جرحي الذي لا يندمل على فراقك، لأنظر الى جراح وطني النازفة، والتي كثرت واتسعت متأثرة بجسد الأمة العربية الذي أثخنته الجراح وأصابته النوائب من كل صوب... وأنا على يقين أنك تؤمن بأن جراح الوطن أشد إيلاما على النفس من جراح الجسد، لذلك أرى لزاما عليّ في هذه الذكرى أن أتطرق الى بعض ما كنت تخافه ان يصبح حقيقة وواقعا داخل مجتمعنا في

يوم من الأيام.

ولأنك كنت مناديا بالتمسك بقيم العدل والعدالة والاعتدال وبتلازم المسؤول والمسؤولية - المواطنة والولاء - الشباب والمستقبل - والعلم والثقافة، أحببت ان أتوقف عند بعض هذه المحطات ولو بقليل من التحليل والمقارنة، لعليّ أقترب قليلا من النهج الذي أردتنا أن نسير عليه.

نحن اليوم يا والدي نعيش في زمن كثرت فيه المسؤوليات وتعاظمت، وقل فيه المسؤولون... زمن أصبح فيه العدل شعارا لا يطبق والعدالة تأسرها المصالح الفردية، والاعتدال عرضة لسهام التطرف والعصبيات.

زمن تتحطم فيه آمال الشباب وأحلامهم على صخرة المستقبل الذي ينشدون ولا يرون اليه سبيلا.

زمن كثر فيه العلم وقل فيه المثقفون... نعم انه زماننا يا والدي وليس زمانكم، وبينهما الفرق الكبير.

يقولون ان الزمن لا يعود إلى الوراء وهذا ما نريد، إنما نتمنى أن تبقى بعض القيم من ذلك الزمن أصيلة فينا ومستمرة وألا ننسى ما تجذّر فينا من قيم كالشجاعة والإخلاص، والتفاني والمودة... والإيمان بالدين دون تطرف وتقبل الرأي الآخر، والعودة إلى مجالس العقلاء لحل الخلافات وليس الاحتكام إلى الشارع.

فالخلافات لا تحل بالصراخ، والمطالب لا تتحقق بالتهديد والوعيد، ونشر الفضائح ليس من الفضائل، ومن يبتغي الإصلاح يجب ألا يلجأ إلى الوسائل بل بالتواصل والنصح والتوجيه نصل إلى ما نريد، هذا ما عودنا عليه آباؤنا والأجداد ويجب أن نعود إليه.

إخواني أخواتي تعالوا معا الى كلمة سواء... ولنضع أمام أعيننا عزة هذا الوطن ورقيه وتقدمه، وحمايته من الأخطار ولنفكر مليا بهذا الجيل الذي غاب عنه والدي عبد الله المبارك منذ واحد وعشرين سنة وأصبح جيل الشباب الواعد الذي أراده أمل المستقبل، لنفكر كيف نعزز دوره ونخلق له فرصا يسهم فيها ببناء هذا الوطن، نساعده في التخطيط وتوجيه التخصصات، نفتتح له آفاقا جديدة، بانفتاحنا على الدول المتقدمة والمنتجة، انفتاحا اقتصاديا من صناعة وتجارة، واندماجا ضمن منظومات ناجحة ومتطورة.

ولنعمل على توأمة بعض مدننا مع المدن المتقدمة والاستفادة من الخبرات المتنوعة في العديد من المجالات.

وأن ننتقل تدريجيا من مجتمع استهلاكي لا مبال، إلى مجتمع منتج وجدّي يؤّمن بعضا من الاكتفاء الذاتي في بعض الحاجيات.

طبعا هذا الانتقال لن يكون بين ليلة وضحاها، إنما بالإرادة والعزم والتصميم نواجه التحديات والمصاعب، إن نبدأ هذا هو التحدي فلنكن على قدر من المسؤولية الوطنية ونزيل العوائق التي تعترضنا ونبدأ!

إخواني يشهد عالمنا العربي في العديد من أقطاره الكثير من الثورات وتحت شعارات ومسميات مختلفة، فلتكن ثورتنا في الداخل ثورة الشباب في ميادين الصناعة والعلم والاقتصاد والعمران والتطوير الإداري، وتشكيل الأندية الاجتماعية التي تستقطب الشباب وتنمي فيهم روح التعاون والتكاتف وتبعدهم عن التناحر الطائفي - والتمايز القبلي وتجعل ولاءهم فقط للكويت، ولاء أبديا لوطن نهائي ولجميع أبنائه.

نعم للكويت التي هي وديعة الأجداد والآباء في أعناقنا... أمانة يجب عدم التفريط بها والمحافظة عليها بكل إخلاص... وليبقى علم الكويت خفاقا للعلى .

ساريته أكتاف المخلصين الذين يريدونه عاليا دائما وشامخا أبد الدهر.

والدي الحبيب، ان دعوتي الصادقة لإخواني في الوطن بأن نكون على قدر المسؤولية، ونتعالى فوق الجراح ما هي إلا اقتباس عنك لما كنت ترجوه وتعمل له.

وفي ذكرى رحيلك الواحدة والعشرين - يا من سكنت القلب لك مني ومن جميع أفراد عائلتك الصغيرة والكبيرة ألف تحية وسلام إلى روحك الطاهرة - وعهدا انك ستبقى فينا خالدا ولنا نبراسا ينير الطريق . لك الرحمة والسكينة وللوطن المجد والخلود.

نشرت: بتاريخ

20 يونيو 2012

2- حديث الأمنيات..

(لافي يوم ولا في ليله غاب ذكره عن اللسان والقلب..)

نعرف حديث الحبيبات عن أحبابهن
ونعي أشواق الأمهات إلى أولادهن..
وندرك لواعج الزوجات إلى أزواجهن..
لكن لهذا الحديث نكهة أخرى.. وأطياف أجلّ وأجمل..

ما أنبل حديث الابنة عن والدها..
وما أروع الصدق الجنوني في بوح الغياب..
هو الحضور الذي لايغيب..
وهو المغيب الذي تشرق ذكراه في النفس كل حين..
الشيخة "أمنية" تقدم عبارات ناعمة صادقة جميلة عن والدها الراحل الشيخ عبدالله المبارك طيب الله ثراه عبر مقال نشرته عام2008
وفي المقال تتضح علاقة جميلة بين والد وابنته .. بينهما فارق كبير في العمر..
ومسافة طويلة من التجارب..
لكن القلب الحميم عندما يجتمع بالحنين لا يكون للزمن قيمة حقيقية إلا بما أسداه من ألفة وألم وحب وفيض حنان..
والحب هو العنوان الرئيس في (البيت المباركي)..
في المقال لقطات لطيفة.. كأنما هي مقاطع سينمائية.. تتوزع مابين الحوار الداخلي.. والفلاش باك ..

تختار الابنة من المكتبة بعض الأشرطة المحددة.. تبدأ بتشغيلها واحدا واحدا..
وتنهمر ضحكات الماضي الجميل يف الشاشة.. في الوقت الذي تنهمر فيه دموع الحاضر النبيل في وجه الابنة..
...

وكلما زاد المرح في الشاشة .. زاد الحزن في الوجه الذي يشاهد.. (من السهل أن نحبس الماضي في شريط فيديو.. أو بطاقة مصورة.. لكن ما أوجع أن يحبسنا الماضي ويجعلنا غير قادرين على الفكاك منه)
لكن الأصعب.. أن نذهب بأنفسنا ونضع أيدينا باختيارنا في قيد ما مضى.. هو الحبس الذي نختاره
لأنه الحب الذي اختارنا..
لكن عبارة الافتتاح.. تأتي بشكل مغاير تبدو فيه مكانة الاب الموزعة في أكثر من جهة. (أبي.. وسيدي.. وذاكرتي)..
يالمكانة الجبال التي في شموخها ورسوخها ووضوحها وهي ترسو في النفوس لاتتزحزح ولا تزول..
كان الجبل ..
لكنه مازال هنا..
هذا الجبل هو الشيخ عبدالله.. تحط على كتفه حمامة تلوذ بدفئه هي (امنية)

وهي لا تفعل في كل ماتفعل إلا لتحفظ لذاكرتها (نضارة الحضور).. فالكبار نكبر بذكرهم.. والأحبة الراحلون يعودون لشغل أماكنهم في حياتنا بأشكال أخرى جميلة...

تقول أمنية وهي تتحدث عن الصور الحميمة التي جمعت العائلة في مناسبات دافئة:

(في لحظة صدق ووفاء شعرت أن من حق التاريخ علينا أن نطلق هذه الصور ليقرأ فيها شعبنا بعض أحداث حياتنا وليعيش معنا تلك الساعات الرائعة من العمر الذي نتشارك فيه مع الآخرين في قراءة الزمن)
وإن فعلت فإنها تهدينا ذاكرتها.. وتعطينا نكهة حياة جديدة لأناس مروا.. لكنهم لم يعبروا من الذاكرة،و لم يغادروا القلب.. ولن يبرحوه..
...

حق التاريخ..



بقلم: أمنية عبدالله المبارك الصباح

سبعة عشر عاماً مضت على غيابه. لا في يوم ولا في ليلة غاب ذكره عن اللسان وعن القلب.

عبد الله مبارك الصباح:

أبي وسيدي وذاكرتي، كأنها الأمس، كانت لحظة الحزن السوداء، الأكبر في الروح والأعمق جرحاً. كنا نحلم بيوم العودة إلى الوطن وقد تحرر من رجس الشيطان فإذا بنا نعود ولكن بالسيف في غمده، وبأحزان الرحيل الأبدي تغلق العين.

من يومها ونحن نعيش ذكراه ولكن من غير أن نذكر رحيله بالكلمات.. نستعيد ذكرياتنا معه إذا جلسنا إلى مائدة الطعام، أو تأهبنا للخروج في رحلة، أو ترافقنا إلى موقع في زيارة، وكأنه لا يزال مقيماً بيننا، وصاحب القرار في خطونا .
ومن يومها وأنا استعيد ساعات العمر مع أفلام سجلناها في مناسبات أسرية أو رحلات عائلية، ألجأ إليها لأحفظ لذاكرتي نضارة الحضور. كذلك عشت مع هذه

الصور أياماً وليال طويلة وأنا أعيد الحوار معها وكأن صاحبها يقف هناك عند باب غرفتي يطمئن إلى زوال الحمى عني حين أمرض.
لكن، في لحظة صدق ووفاء شعرت أن من حق التاريخ علينا أن نطلق هذه الصور ليقرأ فيها شعبنا بعض أحداث حياتنا وليعيش معنا تلك الساعات الرائعة من العمر الذي نتشارك فيه مع الآخرين في قراءة الزمن .
إلى أبي،
إلى عبد الله مبارك الصباح،

وفاء يبقى حتى آخر همسة من حياة .

نشرت عام2008

صقر الخليج يحلّق فى فضاءات سعاد الصباح



من يتجول في القصر الأبيض .. لن يتمكن من إغفال ذلك التاريخ المسجل على جدران البيت. صور الشيخ " عبدالله مبارك " تنطق بتاريخ عريق ومشع، ووجه الشيخة " سعاد " يحفل بذكرياتها العطرة. قبل فترة طويلة أخبرتني عن مشروع كتاب يوشك على الانتهاء حول المعلّم والزوج الراحل. وقبل أيام وقفت عندها لتسجل لي هذا الإهداء:

" الأخ العزيز علي المسعودي . . .

تاريخ رجل ساهم في بناء الوطن . . .

وفاءً لعبد الله مبارك الإنسان

مع تقديري ومودتي "

أما الإهداء . . فإلى أولاد الرجل الكبير " عبدالله مبارك " ، وإلى أحفاده، وإلى الأجيال القادمة التي ستضيء لها هذه السيرة العطرة معالم الطريق إلى المستقبل.

إنها سيرة رجل عصامي، صنع نفسه، وساهم في صنع بلاده، وترك لقومه تراثاً يفاخرون به.

طلع " عبدالله مبارك " من أرض الكويت الطيبة، وعشق ترابها، ودافع عن أسوارها، ورفع راياتها، وتفانى في خدمتها منذ كان صبياً في الثانية عشرة من العمر، حتى وصل إلى رتبة " نائب الحاكم " ورغم أن د. " سعاد " تكتب وفاء لـ " عبدالله مبارك" الإنسان . . إلا

أنها تتجاوز كل العواطف والانحياز المنطقي لأحب الناس، فتسجل تاريخ الكويت، والجزيرة العربية بشكلها العام، مستنطقة أحلامها وآلامها وصراعاتها وكبواتها ونجاحاتها.

في هذا الإصدار . . تقدم المؤلفة وثيقة هامة ستصبح مرجعاً رئيسياً لكل الباحثين في نشأة الكويت وتطورها، ثم في أحداث قرن مضى من التاريخ العربي . . كما أنها تلامس المستقبل ملامسة شفيفة عن طريق العودة إلى الماضي.

. . تحدياً فكرياً

هذا الصقر مازال يحلق في فضاءاتها، ويرفرف بشموخه ورقته أمام عينيها . . وهي لا تفتأ تذكره في كل مناسبة.

تذكره؟

وهل نسيته . . حتى تذكره؟

إنه نسيج من أنسجة الذاكرة.

في التقديم نقرأ :

إن هذا الكتاب ليس مجرد " قصة حياة " حتى ولو كان لرجل غير عادي واستثنائي ك " عبدالله مبارك الصباح "، إنما هو كتاب "توثيق لمرحلة هامة من التاريخ العربي للكويت" بكافة الأبعاد الوطنية منها والإقليمية والدولية. ولا شك أن " الهدف والأسلوب " . . أي " التوثيق التاريخي " و "منهج هذا التوثيق" يعدان " تحدياً" فكرياً وعملياً يفوق بكثير حدود " الكتاب الواحد" أو حتى " الكتب المتعددة" .

فتاريخ الكويت – رغم الصغر النسبي لمساحتها الجغرافية – خلال الحقبة الزمنية موضوع البحث . . إنما هو تاريخ حافل بالأحداث الهامة والمؤثرة . . وهو تاريخ لخصائصه المميزة وأبعاده المتنوعة.

وحياة الرجل . . كإنسان ورجل دولة . . هي حياة مليئة بالأحداث الهامة والمؤثرة .. واللفتات المعبرة والنادرة، وقراءتها واستيعابها ليست بالأمر السهل.

لا دوافع شخصية

تثبت د. " سعاد " في كتابها الضخم أنها باحثة من طراز فريد، وأنها أغفلت هذا الجانب المتميز في حياتها لصالح الشعر . . فالشعر متغطرس بطبعه لا يقبل منافساً أو شريكاً في العشق، لذلك انقطعت المؤلفة إلى القصائد كل هذا الزمن . . لتأتي بموهبة فذة في مجال الدراسات المطولة التي مارستها من قبل في نطاق ضيق. .

يتكون الكتاب من خمسة فصول هي : عبدالله مبارك الإنسان، عبدالله مبارك رجل الدولة: بناء المؤسسات الحديثة، عبدالله مبارك رجل الدولة: علاقات الكويت الخارجية، العلاقات الكويتية – العراقية: من محاولات الهيمنة إلى الغزو العسكري.

أما الخاتمة فتقع تحت عنوان: ماذا يبقى منه للتاريخ . . ولماذا؟ ويحتوي الكتاب صوراً نادرة للشيخ موضوع الكتابة، بالإضافة إلى ملحق وثائق هامة تعزز الآراء والشواهد.

تكتب د"سعاد":

إن الغاية من هذا الكتاب، هي أكثر تواضعاً من أن ترتقي إلى شموخ " التوثيق الوافي" للتاريخ أو للرجل كمهمتين منفصلتين أو كمهمة واحدة . . وإنما " التركيز على دور " عبدالله مبارك" خلال مرحلة هامة من تاريخ الكويت، مع إبراز العلاقة الحميمة والتفاعل الوثيق بين حياة الرجل وتاريخ الوطن".

وليس هناك دوافع شخصية وراء ذلك. . فالكتاب لا يحاول أن يفرض " عبدالله مبارك " على تاريخ الكويت . . . فمكانه في التاريخ المعاصر لدولة الكويت ثابت، ومدعّم بالحقائق. وإنما يكمن الهدف من هذا الكتاب في محاولة تسليط الأضواء على دوره الهام في تاريخ الكويت لإتاحة الفرصة للأجيال الجديدة لكي تتعرف على المؤسسين الأوائل للدولة، وإسهامهم التاريخي في بناء المؤسسات، وإرساء دعائم الحكم، وعلى الرموز التاريخية المضيئة، التي صنعت تاريخ الكويت الحديث .

وفي ذكرها لمناقب الشيخ "عبدالله" تذكر د " سعاد ": بالرغم من أن الرجل انحدر من أصول قبلية ونشأ في أحضان البداوة إلا أن عينه كانت دائما مصوبة إلى أفق العصر.

وبالرغم من أنه مواطن من دولة خليجية صغيرة . . إلا أن أحلامه كانت تحلق دائماً في فضاءات العرب والعروبة.

وبالرغم من أنه لم يتلق إلا قسطاً من التعليم . . إلا أنه كان حازماً في قراراته، صلباً في مواقفه. وفي كافة الأحوال اتسم سلوكه بالعدل بين الناس دون تفرقة أو تمييز بين غني وفقير، بين ابن الصباح ومواطن آخر، بين صديق له وآخر من عامة الناس.

عبدالله المبارك في فكر سعاد الصباح

كنت أعدّ لأبحث عن "عبدالله المبارك" في شعر سعاد الصباح، فوجدت حضوره في نفسها وحياتها أوسع بكثير من مساحة الشعر، فهو مرسوم على كل تفاصيلها وكل تاريخها..

إذا كلـّمتها عن السياسة قالت: عبدالله المبارك..

إذا حدّثتها عن الحب.. قالت: عبدالله المبارك..

إذا فتحت لها أبواب العروبة.. همست: عبدالله المبارك، وإن ذكرت لها التضحية سمعتها تقول: عبدالله المبارك، ولو أشرت إلى الحكمة والحكم وجهتك إلى "عبدالله المبارك"...

تسألها: ماذا عن شعرك؟ تقول: أخذت افكاري من بومبارك

تبادرها: وماذا عن شعورك؟ تجيب: ازدهر ربيعه بمطر عبدالله المبارك.

ماذا عن دراستك؟ تؤكد: الفضل فيها يعود إلى بومبارك

صداقاتك؟

رحلاتك؟

أولادك؟

أنت؟

هم؟

كل ذلك عبدالله المبارك.

فكأن سعاد كانت كالقمر الذي يدور حول الأرض.

هي القمر بجلائه وتجلياته وجماله، وهو الأرض بكل عطاءاتها وحنانها..

بينهما حالة تجاذب وانجذاب أبدية، لا يستطيع القمر الخروج من مدار الأرض، ولن تكون الأرض أرضاً جميلة بلا قمر...

لذلك لم يكن عبدالله المبارك منحصرا محدودا في الشعر، بل في الفكر كله كمنهج حياة وكإيمان، وكامتنان...

ومن المثير للعجب أن ذاك الرجل قرر اعتزال الحياة السياسية وترك الإعلام، في الوقت الذي تغلغل في فكر الشاعرة الأديبة فحضر إلى الحياة الاجتماعية والفكرية والشعرية والسياسية من خلالها كل هذا الحضور..

وبعد حياة حافلة بالتنقلات والتحولات.. جاء دور الوفاء بعد الرحيل..

الوفاء.. الحميم، خصلة المرأة العربية الأصيلة.

وقد اشتهرت نساء شاعرات بالرثاء.. حتى قال مصطفي صادق الرافعي في كتابه "تاريخ الأدب" (إن الرثاء هو عمود شعر النساء) ، فكان خلود رثاء الأخوة في قصائد الخنساء ومراثيها في شقيقها صخر:

أعينـي جودا ولاتجمدا

الا تبكيان لصخر الندى

الا تبكيان الجميل الجريء

الا تبكيان الفتـى السيدا

وفي رثاء الزوج اشتهرت أبيات جليلة بنت مرة في زوجها القتيل كليب:

يا قتيلا قوض الدهر به ... سقف بيتي جميعا من عل

....

خصنـي قتل كليب بلظـى من.. ورائـي ولظـى من أسفلـي

ليس من يبكي ليومين كمن .. إنما يبكي ليوم ينجلي

لكن نتاج سعاد الصباح الشعري والإنساني والفكري أخذ شكل الوفاء أكثر من شكل الرثاء، فكانت دوما تخاطبه كواقع وكوجود وكحضور.. شاخص أمامها بهيئته وبتاريخه، رغم أنه خطاب عاطفي واع ومدرك لحجم الغياب في الوقت ذاته.. وليس من قبيل الاحتجاج على الفقد.. فلم يتضح من كل ماكتبت أنها ترفض هذا الغياب او تحتج على المقادير، بل إنها تقبل ماحدث بنفس راضية.. وفي الوقت ذاته تعيد تشكيل الحضور بشكل آخر، فانجازاتها هي امتداد لحضوره، وأولادها هم استمرار لهيبته وذكرياتها هي اعادة تشكيل واقع فات لواقع سيأتي..

هكذا تعيد سعاد الصباح أحداث الوفاء التي اشتهرت بها المرأة العربية.. فتقفز إلى الذاكرة بعض ما ذكره ابن الجوزي في كتابه أخبار النساء، ومن ذلك قول الاصمعي: رأيت بالبادية أعرابية لاتتكلم، فقلت: أخرساء هي؟ فقيل لي: لا، ولكن زوجها معجبا بنغمتها فتوفي، فآلت ألا تتكلم بعده أبدا..

وقول الأصمعي: خرج سليمان بن عبدالملك ومعه سليمان بن المهلب ابن ابي صفره من دمشق متنزهين فمرا بالجبانة، فإذا امرأة جالسة على قبر تبكي فرفعت البرقع عن وجهها فكأنها غمامةٌ جلت شمسا، فوقفنا متعجبين ننظر اليها فقال لها ابن المهلب: يا أمة الله هل لك في امير المؤمنين بعلاً؟ فنظرت إليهما ثم نظرت إلى القبر، وقالت:

فإن تسألاني عن هواي فإنه بملحود هذا القبر يافتيان
وإني لأستحييه والترب بيننا كما كنت استحييه وهو يراني

قال الاصمعي: فانصرفنا ونحن متعجبين!

والعجب الأكثر هو في صنيع قلب سعاد الصباح.. وانهماراته الصيفية والشتائية ببوح حار للزوج والحبيب والصديق الفقيد..

لأن التلاقي بين (سعاد وعبدالله) كان تلاقي عواطف وتلاقح افكار انبت هذه العلاقة النادرة التي تثير الاعجاب والفخر...

وكم هو رائع ان تغير سعاد الصباح الصورة النمطية في الشعر التي تقوم جماليات شعر الغزل فيها على التغزل بحبيب ليس هو الزوج.. لتثبت أن الحب للزوج والتغزل به وإكباره في النفس والقلب يعطي بعدا أكثر جمالا وجلالا ونبلا للكلمات وهي تسميه (القديس الذي علمني أبجدية الحب من الألف إلى الياء).. تنشد:

رسمنـي كقوس قزح

بين الأرض والسماء

وعلمنـي لغة الشجر

ولغة المطر

ولغة البحر الزرقاء

...

في عام 1960 ارتبطت الشيخة الصغيرة بالشيخ الكبير.

مثل كل مفاجآت الحب.. قرأ اسمها من بين أسماء الطالبات الفائقات.. فاختارها قلبه على الفور، وقبلت هي فورا بهذا الفارس الذي جاء يخطفها من حضن الأب.. إلى أحضانه كزوج وحبيب ومعلم وأب وصديق.

وقد تعددت أشكال الخطاب الشعري والنثري لسعاد الصباح تجاه عبدالله المبارك

فهو مرة "المعلم" الذي يأخذ قداسة المعلمين الحكماء

وهو مرة "الصديق" الذي يسمع ويستوعب ويناقش

وهو أحيانا الأب الذي يداعب طفلته ويعرف جنون أعاصيرها

وهو

وهو

وهو

ماأكثره وما أوسعه وما أرحبه في قلبها، وفي ذاكرتها، وفي مساحة الجغرافيا والتاريخ عندها

قالت له شعرا:

مر تجدني.. أجعل الليل

إذا ما شئت فجرا

والخريف الجهم نيسانا

وألوانا وبشرى

ياحبيبي لا تسل مالون حبي.. أنت أدرى!

وفي سؤال صحفي طرح عليها عمن تقدموا لها يطلبوا يدها للزواج بعد وفاة عبدالله المبارك، أجابت هذه الإجابة الحاسمة والمذهلة:

(لا أحد يجرؤ على ذلك)

تقول نثرا:

حين تزوجت ابن عمي وحبيبي..... ومعلمي الشيخ عبدالله المبارك الصباح كنت في الأول ثانوي، وجدت رجلا مثاليا لايمكنني أن أصفه، وقف الى جانبي منذ اليوم الأول، وتنازل عن امتيازاته التاريخية ومعروف انه رأس العائلة وعمها جميعا.
دفعني إلى ملاعب الشمس كي أغرف من الثقافة والعلم ولكي أزداد علما وفكرا،
هذا الرجل العظيم سار معي كل هذا الطريق الطويل، وكان فخوراً أنني أتعلم..
كان هو سندي والكتف الرحيم الذي ارتاح عليه عندما تعصف بي الرياح.
وتضيف: وإذا كنت حققت شيئا في حياتي العملية والأدبية..
فالفضل الاول يعود إلى عبدالله المبارك
وكانت وصيته لأولاده أن يستثمروا أنفسهم بالعلم والفكر وخدمة بلدهم.

تقول..
(كان يقول: إن النفط لوث بعض أفكارنا..
وكثير من قصائدي وكتاباتي هي من وحي أفكاره وتعليقاته)

سعاد الصباح هي حالة انبهار قصوى بالزوج، وقناعة تامة به كشريك حياة، ليس في الأمر ادّعاءا إعلاميا، ولا بهرجة أدبية.. فهذا الإصرار في القول، والاستمرار في التعبير والشعور الجارف بأشكاله وإشكالاته، يثبت ويؤكد ماتذهب إليه.. ويحشد كل أحاسيسها لكي تكون الكلمات معبأة بها.. صدقا لا حد لنقائه وصفائه.

أما قصيدتها (آخر السيوف) التي تكاد تكون رثائية جيل، فهي علامة فارقة في مسيرتها الشعرية من حيث إحساسها ودفقها والسبك والحبك واللفظ والصور المتتابعة المتزاحمة التي تحكي مرارة فـَقد امرأة شامخة لجبلها الذي جبلت عليه.

..

في القصيدة تداخلت أحاسيس الوطن بأحاسيس الحبيب .. وشجون الأمّة بشؤون الزوجة، فبلغت غاية الإحساس وأقصى الوجع وذروة الألم وسنام الحزن .. ومادلالة آخر السيوف إلا ماتعنيه آخر جولات الفرسان في الحرب، فالسيف الأخير لا يكون بعده إلا إسدال الستارة على كل الجروح..

السيف الأخير سيلتصق باليد التي تحمله معجونا بالدم.. والإصرار ..

ها أنت ترجع مثل سيف متعب

لتنام في قلب الكويت أخيرا

يا أيها النسر المضرج بالأسى

كم كنت في الزمن الرديء صبورا

كسرتك أنباء الكويت ومن ر أى

جبلا بكل شموخه مقهورا

...

صعب على الأحرار أن يستسلموا

قدر الكبير بأن يظل كبيرا

كانت تلك القصيدة الأجمل والأوجع التي كتبتها عقب يوم الفقد الذي لا ينسى: يوم 15 يونيو 1991

...

ومثلما أعادت سيرة الشوق.. أعادت كتابة مسيرة الرجولة والبطولة عبر كتابها (صقر الخليج) الذي تناول رحلة رفيق الدرب ومسؤولياته الكبيرة وتضحياته العظيمة..

...

واستمرارا للوفاء أعدّت كتابها الأهم عن الشيخ مبارك الكبير مؤسس الكويت الحديثة... وكان إلى الإهداء كما نتوقع تماما:

(إلى أسرتي الصغيرة..

إلى روح زوجي الشيخ عبدالله المبارك

إلى أولادي محمد ومبارك وأمنية والشيماء..

إلى أحفادي وحفيداتي

وإلى أسرتي الكبيرة أهل الكويت..

صفحات تحكي عظمة قائد وشموخ شعب..)

وكان الكتاب القيّم الذي يحكي التاريخ وسيحكيه التاريخ.

أما الصفحات الأهم والأروع والأمتع فتلك التي حواها كتابها الأميز والأشفّ:

(رسائل من الزمن الجميل) في نصوص صدرت للمرة الأولى عام2006

تلك الرسائل الشعرية ذات النمط الروائي والمطر العاطفي.. بصياغة البوح الحميم.. بروح أديبة عاشقة، كأنها حمامة ترفرف فوق غمامة

الحمامة سعاد.. والغمامة عبدالله

...

تفتتح الكتاب بالانهمار الحار:

(يوم طلبني الشيخ عبدالله المبارك للزواج عام 1959 كان الطلب بمثابة زلزال قوي هز أعماقي، لم أصح منه إلا بعد وقت طويل..

كان بالنسبة لصبية صغيرة لاتزال تلبس المريول المدرسي بطلا من أبطال الروايات التي كنت أقرأها..

وفي مرحلة المراهقة ما أكثر الأبطال الذين حلمنا بهم، وتمنينا أن يخطفونا ذات يوم على حصان أبيض، ويغمرونا بحبهم وحنانهم وكرمهم وفروسيتهم.

وعندما طرق الباب.. عرفت أن روايات الطفولة صارت واقعا)

تكمل:

(لم يخبئني عبدالله المبارك خلف الستائر، ولم يحبسني في قارورة..

وإنما أدخلني إلى مجلسه، وشجعني على المشاركة في كل الحوارات...

ومن أهم أفضال عبدالله المبارك علي أنه صنعني فكريا وثقافيا عندما فتح أمامي الضوء الأخضر لأواصل تعليمي....)

...

تخلص إلى القول: قليلون هم الرجال الذين يضعون نساءهم على أكتافهم.. ويصعدون بهن إلى قمة الجبل في هذا الوطن العربي. وأشهد أن عبدالله المبارك حملني على أهدابه وعلى أكتافه حتى أوصلني وأولادي إلى شاطيء السلامة.

...

علمها القومية منذ اللحظة التي رفع فيها شعار: الكويت بلاد العرب.. فمنح حق الإقامة لكل عربي على أرض الكويت.

وعلمها الحب منذ أن رعاها بحنان قلبه.

وعلمها الحرية منذ أن منحها حق المشاركة.. فهي أول امرأة تحصل على حقها السياسي غير منقوص.

وقد كتبت إهداء كتابها بهذا الشكل:

(عبدالله المبارك.. زوجي

ومعلمي.. وحبيبي..

وصديق الزمن الجميل)

وكانت أول رسائلها:

(يا أكثر من حبيبي..

إنه الوضوء بمياه ضوئك..)

وفي الرسالة رقم 39:

عبدالله يا أحلى الأسماء..

ترحل وتقفل الباب على زمن رائع عشته معك..

من الزمن الكويتي إلى الزمن اللبناني

إلى الزمن المصري.. إلى الزمن السويسري

إلى الزمن الانجليزي

أشعر أنني تعبت وأن الوقود في سفينتي بدأ ينفد...

(عندها تعلن أنها تقفل باب الزمن حيث خبأت أجمل أيام عمرها، وحيث دفنت أثمن كنوزها..)

وفي التجربة الأدبية لسعاد الصباح الممتدة التي أقلعت رحلتها الأولى في ديوانها الأول "من عمري" عام 1963 وكانت استراحتها الأخيرة "رسائل من الزمن الجميل" هناك درس أخلاقي في الشعر.. فقد اعتدنا من أهل القصائد شعراء وشاعرات أن يكتبوا عن أحبة لهم لا نعرفهم، بل نجهل أسماءهم وأشكالهم.. فهم ليسوا أزواجا ولا زوجات.. إذ أن تجربة الشعر رسّخت في أذهاننا أن الزوجة لا تصلح أن تكون حبيبة، ولا الزوج يستحق أن تدبج فيه قصائد الغزل.. وذلك ما يشبه الهروب الشعري بالإحساس إلى الآخر البعيد..

وتجارب قليلة صرحت بشخص الحبيب.. القريب.

أشهرها غادة السمان التي نشرت رسائل غسان كنفاني إليها.. وهناك فرق كبير بين رسائل سعاد إلى زوجها وحبيبها عبدالله المبارك، ورسائل كنفاني إلى غادة ..

فلايخفي على لبيب تلك النرجسية وحب الذات التي دفعت غادة إلى النشر وما تنطوي عليه من خيانات أسرية.. وهو عكس حال سعاد الصباح في رسائل التفاني والاخلاص والعفة والوفاء.. وإنكار الذات.. فهل نصدق أن الحبيب عبدالله المبارك لم يكتب أي رسالة إلى الزوجة الشابة الجميلة الحبيبة.. لكن أم مبارك لا تتاجر بمشاعر الزوج الحبيب..

وهي لم تنشر رسائلها إليه الا بعد وفاته، وذلك منتهى الاخلاص والصدق في مشاعر لاتريد فيها ردة فعل من الطرف الآخر...

لقد بدت غاية الحب وأوجه وذروة سنامه وبكل وضوحه في كتابها (رسائل من الزمن الجميل) الذي يظهر الحبيب باسمه وكامل أوصافه وبصورته دون تلميح بل بصريح العبارة: هو عبدالله المبارك من الخطوة الأولى إلى المثوى الأخير.. منذ ذلك اليوم الذي طالع اسمها في كشف الفائقات في الصف الأول ثانوي فاختارها، إلى اليوم الذي طالعت وجهه للمرة الأخيرة وهو يذهب إلى جوار ربه..

وعندما نعقد مقارنة بين رسائل سعاد ورسائل غادة... نجد أن رسائل الكتابين مكتوبة بحبر العشق وأقلام الشوق ومادة الولة.. ومرصوفة على ورق الحب.. لنجمتين لامعتين في سماء الأدب العربي.

كتاب أعدته سعاد الصباح، وآخر أعدته غادة السمان.

وعندما يخضع الكتابين للنقد الفني.. تخرج غادة من مادة الحديث ولاتحضر إلا كملهمة محبوبة أثيرة يلاحقها كاتب عربي شهير، هو ليس زوجها.. بل إنه متزوج من امرأة ويبرر لامرأة أخرى خيانته.. حيث يبلغ إعجابه مداه في الكاتبة ويتمدد على مدى صفحات الإصدار الذي أثار ضجة كبيرة وهو يقول لها: (بوسعك أن تدخلي إلى التاريخ ورأسك إلى الأمام كالرمح .أنت جديرة بذلك)

على الجانب الآخر.. تأتي سعاد في مادة الحديث كمحبة وزوجة وفية وعاشقة لرجل هو زوجها.. تبدأ كتابها كأنها تبتهل: (إنه الوضوء بمياه ضوئك) باعتباره كتاب وله وشوق منها إلى حبيب غاب تحضره بكلماتها ونبضها وقلبها

أما رسائل "غادة".. فما هو إلا كتاب وله وشوق وعذاب من حبيب غاب إليها.. ليؤكد حضورها.. ويرسخ تميّزها..

وتشير الدكتورة نورية الرومي الى ان سعاد الصباح كانت سباقة في عصرها عندما تحدثت عن حبها لزوجها.. (الابداع في مواكب الثقافة العربية ص48)

وفي دراسته التي حملت عنوان: (صوت الآخر في شعر سعاد الصباح) يتحدث د.تركي المغيض عن الحبيب الذي يدخل في باب "النمذجة" كما صورته سعاد الصباح في شعرها.. تحت عنوان: (الرجل الرمز)

(.. وجاء وصفها لزوجها ليس باعتباره زوجا فقط، وإنما كونه يجسد آمال وتمنيات المرأة في الرجل. ولذلك فقد تجاوزت سعاد الصباح في تقديمها لصورة هذا النموذج الذاتية إلى خلق حالة موضوعية، وانتقلت من الحديث عنه كزوج إلى الحديث عنه كرمز.

والمتتبع لسيرة الشيخ عبدالله المبارك مع الشاعرة يدرك مكانته في حياتها فهو الذي أعطاها الحرية وفتح لها باب الحوار مع موهبتها الشعرية وهو من ركب لها أجنحة تحلق بها في عالم الأدب والشعر، وهو الذي هيأ لها فرصة البلوغ إلى أعلى المراتب العلمية والأكاديمية في حياتها، أضف إلى ذلك ما كان للشيخ من مزايا الرجل الحاكم الذي كان له دور كبير في دولته.

يتابع "المغيض": ومن أكثر القصائد تحديدا لملامح الرجل الزوج و الرمز وهو على قيد الحياة قصيدة "هل نسيتم"؟ صاغتها الشاعرة تحت تأثير ظرف محدد ولذلك نجدها تركز على الجوانب العامة الإنسانية في شخصيته:

كان في معشره صدرا حنونا

وسنى.. يبهر بالحب العيونا

وندى كالغيث في كف السماء

وإباء ألمعي الكبرياء

وله قلب الصغار الأبرياء

كله خير وطهر ووفاء

أنسيتم أنه صقر الخليج..

مُشرق الطلعة .. فواح الأريج

وواضح أن سعاد الصباح هنا – حسب المغيض – لم تركز على عبدالله المبارك كزوج وإنما كرجل رمز ومعلم و وطني مخلص ، وقد تحدثت عنه في كتاباتها وحواراتها كثيرا، فتقول عنه بأنه "رجل حضاري بكل معنى الكلمة، يؤمن بالعلم والمعرفة، وبحق المرأة أن تشق طريقها على قدم المساواة مع الرجل، وإذا وصلت إلى ما وصلت إليه من المعرفة فإن عبدالله المبارك كان وراء مجدي وانتصاراتي".

(علي المسعودي حمامة السلام – ص 91 ومايليها)

يكمل المغيض: وهي لاتجد سواه في حالات الحزن والأسى عندما فجعت بابنها، فتهرع إليه باحثة عن الحنان والحب لأنها لاتملك - وتؤكد الشاعرة على التملك - إنسانا وحبيبا وأما وأبا وحضنا سواه:

(لا تلمني يا حبيبي إن توالى ألمي

واكتست نضرة أيامي بلون الظلَمِ

ولمن أشكو عذابي؟ وعلى من أرتمي؟

أنا لا أملك إلا أنت من معتصم..

أنت أمي وأبي.. أنت حبيبي توأمي.. (من ديوان إليك يا ولدي)

وتخاطب الرجل الرمز الذي جاهد عمره ليعود إلى وطنه، وبعد صبر وتجلد تحققت له العودة.. وتتحول عندها قصيدة الرثاء في الرجل الرمز إلى قصيدة في الوطن وتمجيده، وتستغل الشاعرة موعد وفاة الرجل الرمز الذي تزامن مع تحرير الكويت، مما سمح لها بالعوده الى الحديث عن فارسها ودوره في خدمة الوطن وتأثير الأحداث فيه:

يا أيها النسر المضرج بالأسى

كم كنت في الزمن الرديء صبورا

كسرتك أنباء الكويت ومن رأى

جبلا.. بكل شموخه مقهورا

واستطاعت الشاعرة – يقول المغيض – بمهارتها الفنية في وصف ما حل بالكويت بسبب الغزو العراقي الظالم أن تؤثّر في المتلقي من خلال رؤيتها بأن الذين دمروا الكويت لم يدمروه وحده.. بل دمروا تلك الذاكرة التي تتحرك بحرية على أرض الوطن:

غدروا بهارون الرشيد وأحرقوا

كتب التراث وأعدموا المنصورا

عبثوا بأجساد النساء ودنّسوا

قبر الحسين ودمّروا المنصورا

لم يتركوا في الحقل غصنا أخضرا

أو نخلة مسياء أو عصفورا

يا سيدي إن الشجون كثيرة فاذهب لربك راضيا مبرورا

***

ثم تنتقل الشاعرة إلى الاطار العام لصورة الرجل الرمز

تنتقل سعاد الصباح الى الحديث عن الجوانب

العائلية والفكرية فتقول على الصعيد العائلي:

(أنت السفينة والمظلة والهوى

يامن غزلت لي الحنان جسورا

غطيتني بالدفء منذ طفولتي

وفرشت دربي أنجما وحريرا)

يكمل المغيض: وتركز سعاد الصباح على مستوى التفكير العالي الذي كان يتمتع به الشيخ وتشير - إلى جانب مهم في هذا الموضوع كامرأة تحمل رسالة الدفاع عن حرية المرأة وحقها في التعبير عن رأيها - إلى أن الراحل مع حق المرأة في حرية الرأي و التعبير عن نفسها بصراحة وشفافية ودون شعور بالخوف أو القمع، فمن شعرها:

(وحميت أحلامي بنخوة فارس

لم تلغ رأيا أو قمعت شعورا

الله يعلم يا أبي ومعلمي

كم كنت إنسانا وكنت أميرا

أابا مبارك يامنارة عمرنا

يادرعنا وكتابنا المأثورا)

وللدكتورة سهام الفريح دراسة حملت عنوان (سعاد الصباح وخروجها من سطوة القبيلة) تتناول مدلولات ألفاظ محددة تتكرر في قصائد الشاعرة مثل: أميري، سيدي، مولاي..

حيث ترددت هذه الألفاظ في خطابها الشعري ، وكانت للفظة "أميري" الغلبة في كثرة تكرارها، وقد صادفنا هذه الالفاظ في ديوانها (أمنية) وهو يمثل المرحلة المبكرة في نتاجاتها الشعرية فلا بد أن تكون بدأتها في مخاطبتها زوجها الشيخ عبدالله وهو من كان يملك السطوة والنفوذ في الحياة العامة في مرحلة من توليه لبعض المسؤوليات في البلاد فاستعانت الشاعرة بالمدلول العام لهذه اللفظة ليعبر عن

المدلول الخاص المتصل بحياتها، حيث كان يغدق عليها الزوج من فيض الحب، فهو اميرها حبا له وتعلقا به.

لكن الشاعرة تعلقت بهذه الألفاظ وأكثرت من استخدامها بمدلولاتها الخاصة بمضامين الحب (....)

وتتعالى هذه الألفاظ بوضوح في خطابها الشعري في قصيدتها (ابتهالات) :

ثم تلحقها بلفظة "أميري" من ديوان أمنية ص 117:

يرسم لي وجه أميري الذي

سلمني في وحدتي للسهر

وتلحّ لفظة "أميري" على الشاعرة في قصائد عديدة:

يا أميري.. أنت يا أطهر من طين البشر..

(أمنية 95)

تقول في نفس القصيدة:

يا أميري إن حبي لك طفلٌ في الصغر

وتشير د.سهام الفريح إلى أن لفظة (السيد) وردت في قصيدتها (فتافيت امرأة) سبع مرات، ثم لحقتها بلفظة (سيدي) في مطلع كل مقطع (سيدي، سيدي) وتعود إليها في مقطع آخر وبنفس التكرار (سيدي، سيدي) الديوان/ 37-48

وحين جاءت بلفظتي (سيدي) (وحبيبي) لم تستغن عن هذه اللفظة في قصيدة (وحدي)

يا أميري، أنت يا من كنت للروح شقيق

أنت كنزي من الرحمة والحب الرقيق

ياحبيبي وسيدي وأميري

- أمنية 74

وتستمر الشاعرة في إعلان استسلامها وخشوعها لهذا الحبيب في قصيدة (خطاب):

(مولاي إن جاء هذا الخطاب..)

وتقول:

(مولاي قلبي في انتظار الجواب..)

هكذا تستعرض د.سهام سطوة مفردات الحب الذي تعلن فيه الشاعرة خضوع قلبها الكامل لحبيبها وأميرها وزوجها، وهو الخضوع بمعناه الإيجابي الذي يأخذ شكل الحب الكامل الشامل... (الابداع 226- 229)

فالحب – حسب رأي د.مختار محمود محمد – يغير الكون بقوته السحرية، حيث يحوّل الليل إلى فجر والخريف إلى ربيع، ذي ألوان وبهجة وسعادة، ولذلك نجدها تخاطب هذا الحبيب في قصيدتها "أنت":

لولاك ماغنت طيور الربى

ولا حلا في الليل طول السهر

ولا تهادى النجم في أفقه

ولا زها في الليل ضوء القمر

ولا تناغى نغم حالم

صفا به العيش وطاب السمر

ويخلص د.مختار في دراسة له حملت عنوان (بين الأمنية والحلم) إلى أن أثر هذا الحبيب واضح في شعر سعاد الصباح (الإبداع - ص257)

وتظل سعاد الصباح حالة خاصة ونادرة من الوفاء.. يمكن استنباطها من تتبع صورها الكثيرة على مدى تاريخها وهي تقف دوما إلى جانب عبدالله المبارك بشخصه، ثم إلى جانب صوره الكبيرة التي تتصدر القصر الأبيض .. بعد رحيله!

طيوف الغمد فى " آخر السيوف "

مرثية الوالد . . والولد

تظل هذه القصيدة التي كتبتها سعاد الصباح في رثاء زوجها الراحل الشيخ عبد الله المبارك، علامة فارقة في شعر القرن العشرين، من حيث جودتها وسبكها، وقوة ألفاظها، وما تحويه من صور بلاغية وكنايات، وإسقاطات، ومرارة نقد، وثبات عزم وحزن أصيل . . من امرأة شامخة على رجل كبير ودع الحياة في ظروف عصيبة كانت تمر بها البلاد . . .

" آخر السيوف " هو عنوان القصيدة، الذي يوحي بانتهاء المعركة . . . وصلابة السيف الأخير، وإسدال الستار على فصل من فصول الحياة.

تداخلت أحاسيس الوطن، بأحاسيس الحبيبة، وشجون العرب. .. بشجون الزوجة، وآلام الحزن . . . بآلام الفقد، كما اختلطت مشاعر العشق بتواشيح الوداع، وكذلك مرارة الغياب . . . مع حلاوة الذكريات، ودفء الزوج . . مع برودة اغتراب الرحيل.

تنشد سعاد الصباح هذه القصيدة مسجلة هذا الرثاء الشامخ والأصيل، عبر صياغة شعرية مذهلة، بمقدرة فذة على الكتابة، والتعبير، وبلوغ أقصى درجات الإحساس، وأجمل صور التشبيه.

كيف استطاعت سعاد الصباح أن تبلغ هذا المبلغ من الشعر . . . لولا أنها تعرف ماذا يعني الشعر، وكيف ترص الكلمات إلى بعضها بتناسق أخاذ، والتئام مرهف؟!

كيف تجاوزت حواجز الصنعة الشعرية، لتصل ذروة الصدق العاطفي، لولا أنها محبة نادرة، وعاشقة فريدة، وشاعرة جديرة بالشعر؟

كيف قدرت على هذا التصوير . . لولا أنها ترى بعين قلبها، وتستكشف ببصيرة إحساسها، وتقول بنبض حزنها العريق؟

كيف مضت تزرع طرقات الجحيم اللغوي بكل هذا الصمود، وهذه الفصاحة، وتلك العبارات والعبرات البليغة، لولا أنها استجمعت كل إحساسها بالوطن، بالذات، بالآخر . . وبالراحل الكبير الذي لن يملأ مكانه أحد أبداً ؟

قصيدة نادرة، كتبتها شاعرة مميزة، تستحق القراءة المتكررة، والتمحيص الدقيق في ما وراء الكلمات والجمل، والجماليات المدسوسة في قلب هذا الشعر الذي سيظل خالداً من خلال هذه الرثائية . . . رثاء رجل، ورثاء رحيل، ورثاء أمة، ورثاء قيم. . . وتطلع إلى منارة شاهقة، ستظل شاهد إثبات على تغيّر كثيف في المرحلة . . . فيما يخص الإنسان، وفيما يخص الأرض.

" ها أنت ترجع مثل سيف متعب" .

شطر بيت هو جملة شعرية لا تقدّم – فقط – لما سيأتي، بقدر ما هي اختصار لزمن طويل مّر.

" ها أنت " . . . إشارة إلى حديث تم نقاشه سابقاً، ومشاهد كانت الشاعرة شاهدة عليها، ورجل ذهب، وغاب، وهاهو يعود الآن . . . كحضور يوحي بغياب، وغياب كان كثيف الحضور.

" ترجع " . . . عودة كان الذهاب فيها زاخراً بالآمال، مزدحماً بالتفاصيل، ما بين انتظار وانتصار وانكسار.

" مثل سيف متعب " . . . لكثرة ما خاض من المعارك، ولضراوة الحروب التي خاضها، لكن السيف يبقى سيفاً رغم كل الظروف.

" لتنام في قلب الكويت أخيراً " . . .

وليس من عادة السيف أن ينام، فهو ينغرس، أو يقطع، أو يكسر . . . لكنه الآن ينام، لأنه عائد متعب . . . وعودته ليست عودة إلى حرب جديدة، بل إلى راحة . . . . في قلب الوطن.

ينام السيف في القلب . . . في علاقة جديدة، لم تكن معتادة في الشعر، فالسيف والقلب ضدان . . . يجتمعان الآن، في حالة حب واحتضان.

" يا أيها النسر " . . .

وصف آخر . . . لرجل عاش في الأعالي، واعتاد الشموخ، والإباء، لكنه الآن مضرج بالأسى، لأنه كان شاهداً على زمن رديء . . . ورغم ذلك لم يتخل عن صفة الصبر التي لازمته وأتعبته.

من الصعب على السيف، و النسر الانكسار . . . لكن الضربة عندما تأتي من الجانب الذي كان يفترض أن يكون مصدر الأَمان . . يحدث الكسر الشديد المحزن.

" كسرتك أنباء الكويت " . . فالنبأ العظيم يحدث أثره العظيم على الجبل الأشمّ . . الذي من النادر أن يتم قهر شموخه . . . مع ذلك يحدث المصاب اللا متوقع**!**

وها هو الموت يأتي في الوقت المناسب. فالأبطال الكبار ذوو الشموخ، لا تتناسب حياتهم مع الأوضاع الرديئة وأزمنة الخيانة والغدر، لذلك يكون الموت هو البطل، وحالة الغياب المفترضة:

مـــا كـــان يمكن أن تعيــش لكي ترى

باب العرين مــخلَعِــاً . . . مكســورا

وتتوالى أحزان سعاد الصباح، يتواصل حديث النفس، ومعاتبة الزمن، وتعنيف شجرة الحياة المصابة بعقم في إنجاب الرجال . . . والأمان . . .

يتوالـى وصفها الدقيق والجميـل، والمفجـع، لهذا المشهـد الأخير . .للسيف الأخير . . وتبلغ المرارة ذروتهـا . . .

صعـبٌ علـى الأحـرار أن يستسلمـوا

قـدر الكبيـر بأن يـظل كبيـــرا

للهمّة ثمن باهظ، وللشموخ ثمن، ولاختيار المجد إرهاصات . . .

فالكبار لابد أن يظلوا كباراً، وحالة الاستسلام لا تطولهم أبداً . . . لكن ما يتسرب إلى قلوبهم هو الحزن الشديد.

ها هو فارس الفرسان يترجل أخيراً بعد عمر طويل من المعارك. طويل ليس بقياس الزمن. ولكنه طويل بقياس الإنجاز.

يا فارس الفرسان يا ابن مبـاركٍ

يا مـن حميـت مداخـلاً وثغورا

شربت خيـولك دمـعـها وصهيـلهـا

كيـف الخيـول تموت؟ لا تفسيـرا

ليس هو استفهام بقصد الاستنكار، فالشاعرة راضية بالقدر، مستسلمة لأمر رب العباد، لكنه استفهام بقصد الاستغراب، والاستغراق في تجميد اللحظة التي يتم فيها مشهد الفراق الطويل . . . واستفهام يوحي بصعوبة وصف موت الخيول . . فلا تفسير يناسب حالة خيول يموت فيها الصهيل، كيف الخيول تموت . . . وتحرمها الظروف من ذرف دموع الألم على نهاية معركة، كان الانكسار فيها مرادفاً للنصر!

تتواصل رحلة الشاعرة في بث لوعتها على أحداث التاريخ الذي زوّره " الأخوة الأعداء" . . . وهي تخاطب رجلاً راحلاً، وسيفاً فريداً . . . كأنما تخاطب

نفسها، وتسرد أشكال المتناقضات ما بين أمجاد غابرة، وأفعال غادرة، وتدمير أليم كان دافعه الحماقة والغرور . . .

ثم تتوقف الشاعرة عن السرد، لأن الأهوال أكثر من أن توصف، والشجون كثيرة، ولا مجال إلا لقطع الحديث عن هذه اللحظة، والتسليم بقضاء الله . . .

يا سيّدي . . . إن الشجـون كثـيـرةٌ

فــاذهب لربك راضـيـاً مـبـــرورا

وتتعـالـى نبـرة الحزن لتبلـغ أوجهـا، وتتصـاعـد معهـا اللغة الشعرية لتصـل إلى ذروة الجمال الفني، وبراعة الوصف، فتكتمل القصيدة بهذا الشكل النادر من التصوير، والألم، ومعادلة التاريخ ومعاملته . . . تتوقف هنا سعاد الصباح لتعطي كل بيت زخمه الأدبي والفني، كل ما في روحها من حسرة ومن قدرة بديعة على اختصار الكلام الطويل في شطر بيت، يوحي بكلام لا ينتهي، وجمال لا يوصف. فهل كان التاريخ هنا مجرد قشور تتفتت بين الأصابع التي لطالما صاغت الجمال، وعيون أحبت هذا التاريخ وانتمت إليه . . . وإلى أين يذهب الفنان في هذه اللحظة؟ . . . ماذا تقول امرأة كتبت من قبل ديوان " فتافيت امرأة " . . . وهي الآن كامرأة نادرة، وشاعرة مميزة، تخاطب، زوجاً نادراً، وشيخاً مميزاً .

يتـفـتت التـاريخ بين أصـــابعي

وأشـاهـد الوطن الجميـل كسـيـرا

وبعد أن تفرغ الشاعرة من وصف العودة، ثم وصف الوطن، وأحداث التاريخ، تذهب إلى وصف حالتها هي، وشكل استقبالها للحدث، والمصاب الكبير، كما تسترجع أجمل

اللحظات التي عاشتها مع الزوج . . . الذي كان بالنسبة إليها الخيمة والدفء والقبيلة والأب، والعطاء اللا محدود . . .

إن آخر السيوف ليست قصيدة عابرة، بل شاهد على الشعر العربي، والتاريخ العربي، وحالة فريدة في العشق والانتماء والحزن والإباء والانكسار، حالة شعرية مجيدة وجميلة تبلغ أقصى درجات الجمال والروعة، وتوضح تلك المحبة التي جمعت قلبين، وألفت بين تاريخين، وربطت بين امرأة مبدعة وشاعرة عظيمة، وحبيبة مخلصة هي سعاد الصباح، ورجل كبير، عظيم، هو الشيخ عبد الله المبارك الصباح، وهنا أتوقف لأدع القصيدة تتحدث بصوت الشاعرة سعاد الصباح :

هـا أنت ترجع مـثل سيـف متعـب

لتنـام في قلـب الكويت أخـيـرا

يا أيهـا النسـر المضـرج بالأسـى

كم كنت فـي الزمن الرديء صبـورا

كـسرتـك أنبـاء الكويـت ومـن رأى

جبـلاً، بكل شموخـه، مقهـوراً ؟

مـا كـان يمكن أن تعيـش لكي تـرى

باب العرين، مخلَعـاً . . . مكسوراً

صـعب على الأحـرار أن يستسلمـوا

قـدر الكبيـر، بأن يظـل كبيــرا

يا فـارس الفرسـان يا ابن مـبـاركٍ

يا من حَمـيتَ مداخـلاً، وثغـورا

شَربَتْ خيولُك دمعهـا، وصهيلهـا

كيـف الخيـول تموت؟ لا تفسيـرا

ما عـاد بحـرُك أزرقـاً، ياسيـدي

فكأنما صار النهـار ضـريـرا . . .

الإخـوة الأعـداء مـروا من هنا

كـي يمـلأوا تاريخنـا تزويـرا

شنقـوا الغني على مشانق حقدهم

أما الفـقـيـر فلا يزال فقيـرا . . .

غدروا بهارون الرشيد . . وأحرقوا

كُتُب التراث. . وأعدموا المنصـورا

عبثـوا بأجساد النساء . . ودنسـوا

قبر الحسين . . . ودمروا تدميرا . . .

لم يتـركـوا في الحقـل غُصناً أخضـراً

أو نخلةً ميـسـاء . . . أو عصفـورا

قضـمـوا الكويـت . . كأنـهـا تفاحـةٌ

ورمـوا ثيـاب القاصــرات قشـورا

من ذا يحـاسب حـاكمـاً متـسلَطـاً

ذبح الشعـوب حماقـةً . . . وغرورا؟

يا سيّـدي . . . إن الشجـون كثيـرةٌ

فاذهـب لربـك، راضيـاً مـبـرورا

يتفـتّت التـاريخ بيـن أصابعـي . . .

وأشاهـد الوطـن الجميـل كـسيـرا

خـذلـوك، يا شيـخ العـروبة، عنـدما

جعلوا العروبة . . . مَسلخـاً وقبورا. .

ذبحـوا الطمـوح الوحـدويّ . . . من الذي

يرضـى بأن يتـزوج الساطـورا؟ !

جــاؤوا إليك . . . لكي تبـارك فعلـهم

يأبى الإبــاء بأن يكـون أجيــرا . .

أأبا مـبــارك . . كنت أنت قبـليـتي

وجـزيرتـي . . . والشاطىء المسحورا

يا خيْمـتي وسـط الريـاح. من الـذي

سيلُـمُّ بعـدك دمــعيّ المنثـــورا؟

يا مَن ذهـبْتَ وما ذهـبْتَ، كــأنني

في الليل أسمع صوتـك البلّـورا

أنت الربيع . . . فلو ذكرتك مرة . . .

صار الزمـان حـدائقـاً . . . وعبيرا

أأبا مـبـارك، لو هنــاك مـــدامعٌ

تكفي . . . لفجـرتُ الدمــوع نـهـورا

مَن ذا يـغـطّـيـنـا بريـش حنانــه؟

من يمــلأ البيـتَ الكبيـرَ حـضـورا؟

أنتَ السـفينـة، والمظلة والـهـوى

يا مَـن غـزلتَ ليَ الحنـــان جسـورا

غطَيتنـي بالــدفـء منذ طفولتــي

وفـرشتَ دربــيَ، أنجمـاً وحـريـرا

وحميـتَ أحلامـي بنخـوة فارسٍ

لـم تُلــغ رأيــاً أو قـمـعت شعـورا

الله يعلـم يا أبي. . . ومعلـمـي

كم كنت إنسانـاً . . . وكنت أميـرا . . .

أأبا مبـارك يا منـارة عـمرنـا . . .

يـا درعنا، وكتــابـنـا المأثـورا. .

كنتَ الكويت أصـــالةً وحـضــارةً

ومناقـبـاً عربيــةً وجـذورا . . .

البحـرُ أنت . . . يفيـض عن شطآنـه

قـدرُ الكبيـر بأن يكون كبيــرا . . .

أأبا مبــارك، سـوف تبـقى دائمــاً

في العين كُحــلا. . . والشفـاه بخورا

يا آخــذ الكلمـات تحـت ردائـه

مــا عُدتُ بعدك أُحسِنُ التعبيــرا

لندن (حزيران) يونيو 1991 م

وبعد القراءة . . . لابد من رصد جملة من الصفات المميزة في هذه القصيدة النادرة، صفات تتآلف بشكل غريب، وتجمع جملة من المشاعر، يمكن وضعها تحت سبعة بنود:

- صفة الكبرياء: سيف صبور جبلاً العرين كبيرا فارس الفرسان شيخ العروبة الإباء إنساناً أميراً منارة درعنا كتابنا المأثور الكويت البحر ابن مبارك أبا مبارك.
- صفة الانكسار: متعبا مضرج بالأسى كسرتك أنباء الكويت مقهوراً باب العرين مخلعاً مكسوراً الخيول تموت.
- صفة الثبات: شموخ صعب على الأحرار أن يستسلموا قدر الكبير بأن يظل كبيرا اذهب لربك اضيا مبرورا يأبى الإباء بأن يكون أجيراً أصالة وحضارة مناقباً عربية جذورا قدر الكبير بأن يكون كبيرا حميت مداخلاً وثغورا.
- صفة الحزن: في الزمن الرديء ما عاد بحرك ازرقا صار النهار ضريرا الشجون كثيرة خذلوك فجرت الدموع نهورا شربت خيولك دمعها.
- نداء خاص عطاء الحزن: ياسيدي في العين كحلا والشفاه بخورا غطيتني بالدفء فرشت روبي انجما وحريرا قبيلتي جزيرتي الشاطيء المسحورا خيمتي غزلت لي الحياة جسورا أبي معلمي الهوى.
- جمال وعطاء عام: يفيض عن شطآنه أنت الربيع صوتك البلورا حدائقا وعبيرا السفينة المظلة.
- حاجـه: ياسيدي في العين كحلا أنت الربيع صوتك البلور حدائقاً وعبيرا السفينة المظلة.

وقصيدة الرثاء ليست حالة طارئة في شعر سعاد الصباح، مثلما أن الحزن ليس طارئاً في قلبها، فقد تفطّر القلب قديماً بفقد الابن " مبارك " . . . فكان الانفجار الشعري الأول عبر نتاجها البكر الذي حمل عنوان " إليك يا ولدي" . . . وفيه مفاجأة أم لوّع قلبها الفراق المفاجئ، وصدمتها نكبة الرحيل المباغته، حيث ما كادت تكتمل فرحة الطفل الأول، ولم تستمر بهجة الأمومة الأولى إلا وكان الموت هو اللحظة التي أعلنت تسلل الحزن إلى عينين " شابت فيهما الدموع" كما تقول في إهداء الديوان، حيث هذا الوصف النادر والغريب، فيحدث أن تبيض العين حزناً ، أو تشيب الجفون كمداً، لكن الإحساس الشعري والعاطفي لدى سعاد الصباح يذهب إلى أن يشيب ماء الشجن المنحدر من العين الجميلة.

تقول سعاد الصباح في إهداء "إليك يا ولدي":

" إليك يا ولدي . . . إلى من كان رجلاً رغم طفولة العمر . . . إلى من كان الأنيس، والرفيق، والصديق، في زمن ندر فيه هؤلاء، إلى من كان "مباركاً"، وستظل كذلك ذكراه، إلى ولدي . . . وإلى الأمهات اللواتي شابت في عيونهن الدموع . . . أهدي كلماتي " .

والغريب أن حزن سعاد الصباح، لم يجرفه الزمن، بل أصبح يتعتق في القلب أكثر، وينضج، وينضح بكثافة كلما مرّ العمر، وكلما تذكرت لحظة الولادة ثم لحظة الموت. كانت دموع الكلمات هي التي تتحدث عن ذلك:

إنها تعزف نغمة اللهفة والفقد بصدق دون تصنّع أو مبالغة، فقلبها الرقيق مثل صوتها الرقيق . . . قابل دوماً للجرح، وأن يتكسر الهواء في الصدر بشكل مباغت . . . ورغم أن سعاد الصباح تحاول أن تلغي البدايات الشعرية بوصفها لها بأنها " خربشات طفولة " . لكنها لا تلغي ذلك الإحساس المدفون في الشعر، بل تعتقد أن الإحساس كان أبلغ من كل الكلام، وأكبر من الشعر، وأعمق من اللغة .

ولكن هذا العمق في الحزن، هو الذي أنتج تلك الرثائية التي تخاطب فيها سعاد الصباح فقيدها الغالي، طفلها البكر " مبارك" الذي ظلت تحمل أسمه حتى اليوم،

وتعتبر أن لقب "أم مبارك " هو أسمى من كل الألقاب ، وتفضله على لقب الدكتورة أو الشيخة أو الشاعرة .

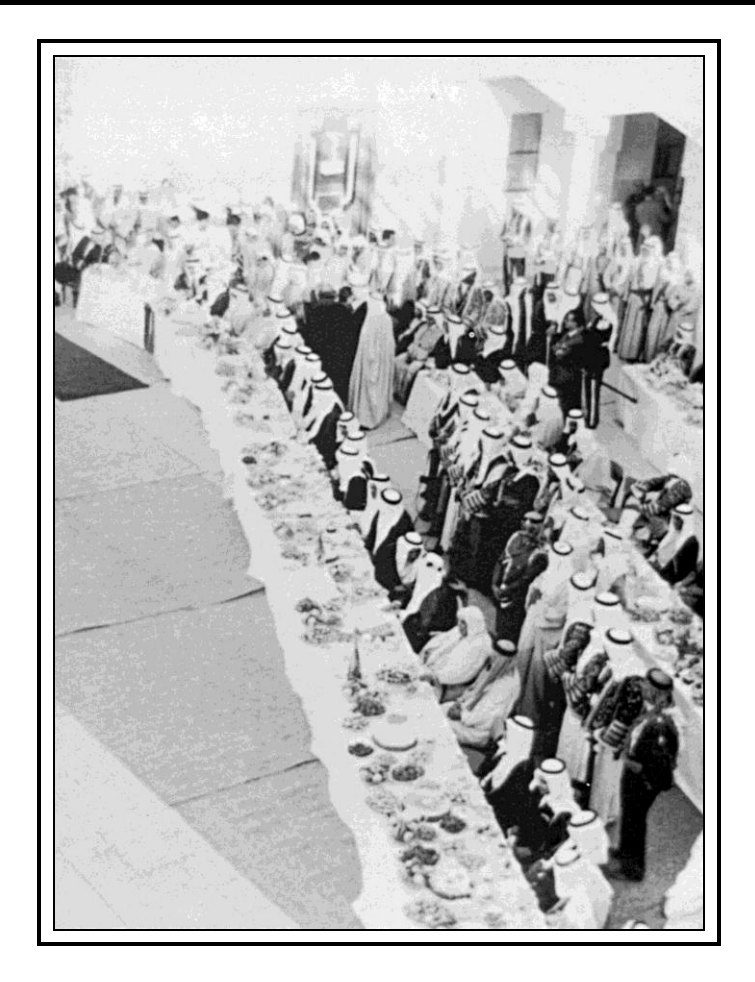
تقول في **" إليك يا ولدي "** :

مبارك كان لي دنيا من الحب أنا جيها
وآمالاً أعيش بها ، وأحلاماً أغنيها
وللمستقبل المرجو أختال بها ، تيها
فكيف اغتالها مني قضاء جاء يطويها

ويلقى بي إلى الظلمات تشقيني وأشقيهـا
كأني موجة في اليم قد ضلت مراسيهـا
فيا ولدي، ويا ذخـري من الدنيـا وما فيها
أجب . . . من يغلب النـار التي شبت ويطفيها؟
أمـا تشهـد أيامي، وما أقسـى لياليها
تعذبنـي دقائقهـا . . . وتحرقنـي ثوانيهـا؟

ومثل هذه الأمومة الطافحة التي تشتعل بها الكلمات حباً وشوقاً وألماً، ويتفجر بها الشعر، يحق لها أن تخلد في كل قلب يقرأ، ونفس تعرف قيمة الحب، وتكتب الرثاء بصدق جميل، وحزن جليل، وهي الشاعرة التي تعلقت بمحبة أبنائها . . . وألفت فيما بعد ديواناً آخر يحمل أسم أبنتها الكبرى " أمنيـة " .

يوم في حياة عبد الله المبارك في رمضان



نشر هذا التقرير في العشرين من شهر رمضان 1378 الموافق لشهر مارس 1959 بجريدة " وطني " المصرية الأسبوعية بمناسبة احتفالات الكويت بالعيد الأول للجمهورية العربية المتحدة ، وكانت إحدى المقابلات مع الشيخ عبدالله المبارك الذي كان يشغل منصب نائب حاكم الكويت ورئيس دائرة الأمن والشرطة والقائد الأعلى للجيش والقوات المسلحة في تلك الفترة ، دعيت إلى الإفطار بقصره،

وهناك على المائدة، شاهدت سموه للمرة الثالثة يجلس بين ضيوفه ورأيت بينهم الضابط الكبير والجندي الصغير والمدير العام والفراش البسيط والكويتي والعربي والأجنبي.. التاجر والعامل خليط عجيب جمعهم كرم الشيخ وسماحة تقاليده العربية.. كان كل واحد يحس انه في بيته .

واستأذنته في تسجيل يوم كامل في حياته ورأيته يبتسم ويقول في تواضع "بكل ممنونية البيت بيتكم"

وفي الساعة السابعة والنصف لليوم التالي كنت أرابط مع زميلي المصور داخل القصر، ولم تمض سوى بضع دقائق حتى استقبلنا مرحبا، ويبدو انه لم يكن يتوقع أن يرانا في هذه الساعة المبكرة من الصباح، فقال ضاحكا: «انتم ما تنامون» ثم دخل إلى غرفة مكتبه الخاصة بالقصر، ومن المكتبة اختار كتاب الكامل في التاريخ وبدأ يطالع فيه فترة، ثم ترك الكتاب وتناول ملفا انكب على دراسته، وفي الثامنة والثلث كان يقود سيارته بنفسه إلى مكتب الحاكم، حيث بقي فيه حتى العاشرة، ثم انتقل الى مكتبه بدائرة الأمن العام حتى الثانية عشرة والنصف، وطوال هذه الفترة لم يهدأ لحظة، فمن دراسة ملفات يقدمها

كبار الموظفين أو شكوى من مواطن بسيط أو تاجر كبير إلى دراسة مسائل الدولة إلى استقبال السيل الذي لا ينقطع من الزوار وكل منهم له مشكلة يعرضها أو طلب يلتمس النظر فيه .

وكنت أراقبه وهو يعمل ويناقش ويستفسر ويحسم..كل هذا في هدوء والابتسامة لا تفارق شفتيه.. وترك مكتبه وظننته عائدا إلى القصر، وانتظرنا وطال انتظارنا، ومضت علينا فترة تزيد على الساعة، ثم وصل، وعلمت انه كان في زيارة مفاجئة لإحدى ثكنات الجيش.. وكنت اشعر بالمجهود الذي بذله .

وعندما حان وقت الإفطار انتقل مع الضيوف بعد أداء الصلاة إلى شرفة واسعة اصطفت فيها المقاعد الوثيرة حول حمام السباحة الأنيق، وأقبلت طفلة صغيرة ورأيت لحظة من الحنان والحب والمناجاة بين الأمير الإنسان وابنته الطفلة، وكانت عدستنا تسجل وكانت صورا لاسمي عاطفة في الوجود .

وانصرفت الصغيرة واستمرت جلسته مع ضيوفه حتى الحادية عشرة مساء..كانت تخرج أفواج لتحل محلها أفواج أخرى.. وكان الفوج الأخير قد بدأ بالانصراف، واستأذنت منصرفا معهم.



الحقيقة بشأن استقالة عبدالله مبارك



بقلم: د. سعاد محمد الصباح

لقد حرصت على عرض ما ورد في الوثائق البريطانية حول تلك الأيام الحاسمة في الكويت في سنة الاستقلال دون تدخل من جانبي ، وبنفس عباراتها تقريبا، لكي أعطي صورة عن تفكير الحكومة الانكليزية في ما حدث وقتذاك، وللمعلومات التي أقاموا على أساسها تقديراتهم وحددوا مواقفهم.

وأريد بعد ذلك أن أعرض لما حدث وخلفياته كما سمعتها من " أبي مبارك"، وأترك الأمر بعد ذلك للباحثين والمؤرخين لمن يريد منهم أن يكتب تاريخ تلك الأيام الحاسمة من حياة وطننا.

لقد كانت علاقة الشيخ عبد الله بأسرته من نوع خاص جداً، وذلك بحكم أنه ابن الشيخ مبارك الكبير. فقد أعطاه ذلك وضعاً أدبياً ومعنويا متميزا. فبرغم صغر سنه، فإنه كان بمثابة العم لكل شيوخ الكويت، واعتبر معظم أفراد العائلة بمثابة أولاده وأنه " كبير الأسرة " الذي عليه متابعة أمورها ، ورعاية شؤونها العامة والخاصة. وكانت داره مفتوحة للجميع بدون تمييز، وعرف شباب الأسرة طريقهم إلى قلبه باعتباره عمهم، و" العم والد " كما يقول المثل العربي. وزاد من ارتباطه بالأسرة أنه تأخر في سن الزواج، فكان شباب الأسرة في مقام أولاده.

وكانت علاقاته بأعضاء الأسرة متنوعة وعديدة . فعلى سبيل المثال، اتسمت علاقته بكل من الشيخ فهد السالم والشيخ صباح السالم بودّ حميم. فقد كانت أعمارهم متقاربة، وبرغم وجود اختلافات في الرأي بينهم أحياناً – وتلك سنة الحياة – فقد استمرت صلة المودة والاحترام قائمة. وإنني أدهش من إلحاح التقارير الإنكليزية على الإشارة إلى الخلاف بين الشيخ عبد الله والشيخ فهد، وأذكر ما أخبرني به الشيخ عبد الله من مشاعر

المحبة والاحترام التي ربطته بالشيخ فهد، وأنه كم شعر بالحزن والوحدة لوفاة الشيخ فهد في يونيو من عام1959 .

ومن الجيل الأصغر سناً، ارتبط الشيخ عبد الله بكثير من الأسماء التي سطعت في سماء الكويت منذ الاستقلال. من هؤلاء سمو الشيخ جابر الأحمد الذي كان مسؤولاً عن الأمن في ميناء الأحمدي وعمل معه عن قرب، والشيخ سعد العبد الله الذي كان نائبه في دائرة الشرطة والأمن العام ثم خلفه كرئيس للدائرة، والشيخ مبارك العبد الله الجابر، نائبه في قيادة الجيش ، والشيخ مبارك العبد الله الأحمد، نائبه في دائرة الأمن العام، وكذلك الشيخ جابر العبد الله الجابر. وكان يقول: " أن هؤلاء أولادي، وأن الجيش والشرطة في أيد أمينة، وإني أرى نفسي فيهم " .

كان الشيخ شغوفاً برعاية أسرته الصغيرة والكبيرة وامتدت رعايته للكثير من أسرة الصباح. ارتبط بوالدته ارتباطاً عميقاً، وكان يعودها يومياً في الكويت ويسافر معها لمتابعة علاجها في الخارج. كما اهتم بشقيقاته وأسرهن، وكذلك بشقيقه الشيخ حمد – الذي رعاه في الصغر – وبأولاده الشيخ مبارك والشيخ خالد.

احتفظ الشيخ بمشاعر مودة خاصة لأولاد الشيخ أحمد الجابر. فقد نشأ الشيخ عبد الله في ظله، وكان يعتبره بمثابة الوالد والمعلم، وهو الذي فتح له أبواب المشاركة في الحياة العامة، ودربه على تحمل المسؤولية . لذلك كان أبناؤه محل اهتمام خاص من جانب الشيخ عبد الله. وإلى جانب الشيخ جابر الأحمد والشيخ صباح الأحمد، فقد ربطته علاقة خاصة بالشيخ عبد الله الأحمد الذي عمل نائباً له في دائرة الأمن العام، وائتمنه على وصيته. أما الشيخ محمد الأحمد الذي اعتكف لفترة بالبصرة، فقد كان يزوره من حين لآخر للاطمئنان عليه. أقام علاقة مماثلة مع الشيخ حمود الجابر، شقيق الشيخ أحمد الجابر. أما بالنسبة للشيخة بيبي السالم زوجة الشيخ أحمد الجابر- وابنة شقيقه – فقد احتلت لديه مكانة الأخت بكل ما فيها من معاني الوفاء والتواصل.

امتد اهتمامه إلى أبناء عمومته – أولاد الشيخ محمد والشيخ جراح الذين أقاموا في البصرة، وسعى لعودتهم إلى بلدهم وتوفير الحياة الكريمة لهم. ربطته صلة مودة متميزة بالشيخ حمود الجراح . كما اهتم بأحفاد أخوته، مثل الشيخ حمود والشيخ دعيج أحفاد أخيه حمود، وبأحفاد أخوته مثل الشيخ جابر العبد الله الجابر. بنفس روح الوفاء ارتبط بالشيخ عبد الله الخليفه شقيق الشيخ علي الخليفة وظل يعوده حتى وفاته .

وحرص الشيخ عبد الله على الاهتمام بشباب الأسرة، فكان يدعوهم إلى الخروج معه إلى البر، ويحدثهم عن مكانة أسرة الصباح في تاريخ الكويت، والدور

الذي يجب أن يقوم به شباب الأسرة في نهضة المجتمع وتقدمه. وقد ازدحمت غرفة نومه بصور كثير من أعمدة أسرة الصباح.

حرص الشيخ على وضع أسرة الصباح وتضامنها، ولم يكن لديه أدنى استعداد للقيام بأي عمل يهدد وحدة الأسرة أو يثير الخلافات داخلها، وكان هذا هو أحد مفاتيح شخصيته التي لم يفهمها الانكليز قط. لقد اختزنت نفسه طموحات عريضة تتعلق ببلاده، ورغب في تحديث الكويت وتطويرها بسرعة، ودافع بحماسة عن آرائه وعما اعتقد أنه الصحيح، ولكنه لم يفكر قط في استخدام القوة لفرض رأيه أو موقفه على الآخرين .

وخلافاً لما تردد في الوثائق البريطانية من أن جهود الشيخ لتسليح الجيش الكويتي وزيادة عدده قد أثارت المخاوف لأنها أدت إلى دعم نفوذه السياسي، فإن الشيخ لم يفكر في الجيش إلا باعتباره درعاً للوطن في مواجهة المطامع الخارجية، وأساساً لا غنى عنه لبناء الدولة الحديثة. لذلك، فإن حديث التقارير البريطانية عن استخدام القوة وعن احتمال قيامه بانقلاب يعكس عدم فهم للرجل وللعلاقات داخل الأسرة . وأكبر دليل على ذلك هو ما حدث في عام 1950 عند وفاة الشيخ احمد الجابر، أو في عام 1960 عندما حدثت خلافات مع الأمير حول عدد من قضايا الحكم.

وكما أوضحت من قبل، فقد كان الشيخ أحمد الجابر مريضاً للغاية في أيامه الأخيرة، وترك السلطة بأكملها تقريباً للشيخ عبد الله. وعندما توفاه الله، أرسل الشيخ برقية إلى الشيخ عبد الله السالم الذي كان في طريقه للهند يطلب فيها منه سرعة العودة. ولم يتمكن الشيخ عبد الله السالم من حضور مراسم الدفن والعزاء، وكان الشيخ عبد الله هو الذي استقبل المعزين وتلقى العزاء على رأس أفراد الأسرة. ولم يحدث قط أي خلاف على السلطة في ذلك الوقت، وحديث التقارير

الإنكليزية عن تنافسات وصراعات لم يكن له أساس، ولا أعرف من أين أتى مكتب الوكيل السياسي البريطاني في الكويت بهذه المعلومات. وكما أخبرني الشيخ، فإنه عندما اجتمعت الأسرة للبحث في اختيار خليفة للشيخ أحمد الجابر، فإنه وصف الشيخ عبد الله السالم بأنه " والدي وهو أحق مني ".

ولمدة عشر سنوات تالية، كان الشيخ عبد الله هو نائب الحاكم ويده اليمنى في إدارة البلاد، وكان الحاكم يترك له الكثير من الأمور ليباشرها بنفسه، كما أوضحت في الفصول السابقة. وكان الشيخ عبد الله حريصاً على إبراز كل مظاهر الاحترام والتقدير للشيخ عبد الله السالم، وكان يفعل ذلك بشكل تلقائي وطبيعي بحكم العادات التي تربى عليها، والقيم التي طبعت تفكيره وسلوكه. وزاد من دور الشيخ عبد الله وأهميته خلال هذه الفترة الطباع الشخصية للشيخ عبد الله السالم وميله للسكينة والانطواء، وعدم رغبته في التدخل في القرارات اليومية المتعلقة بتسيير أمور الحكم، وهو ما أضطلع به الشيخ عبد الله مبارك.

لهذا، توطدت علاقة حميمة بين الرجلين. علاقة حكمتها مجموعة متداخلة من العوامل، منها احترام الصغير للأكبر سناً، ومنها رابطة الدم بين الإنسان وعمه،

ومنها روح التفاني والإخلاص في العمل التي مارسها الشيخ عبد الله وكسب بها حب ابن شقيقه واحترامه. لذلك، كان الحاكم يسافر كثيراً إلى الخارج معتمداً على وجود يده اليمنى ونائبه، وكان من الملاحظ عموماً أن الشيخ عبد الله لا يسافر لقضاء إجازته السنوية إلا عندما يكون الحاكم موجوداً.

وباستعراض التقارير الشهرية للوكيل السياسي التي كان يوثق فيها تواريخ سفر كبار المسؤولين في حكومة الكويت، يتضح أن الشيخ عبد الله مبارك تولى الحكم بالنيابة لأول مرة عام 1950، ثم عام 1951. ثم تولاه في عام 1952 لمدة ثلاثة

شهور (مارس و نوفمبر وديسمبر) ، وفي عام 1953 لمدة ثلاثة شهور أيضاً (فترة الصيف)، وفي عام 1954 لمدة شهرين (ابريل ومايو)، وفي عام 1955 لمدة ثلاثة شهور(ابريل ومايو وديسمبر) ، وفي عام 1956 لمدة شهر واحد (أكتوبر)، وفي عام 1957 لمدة أربعة أشهر (ابريل ويونيو ونوفمبر وديسمبر)، وفي عام 1958 لمدة تسعة أشهر (ماعدا أغسطس وسبتمبر وأكتوبر)، وفي عام 1959 في أغلب الشهور لسفر الحاكم كل شهر من شهور السنة ماعدا شهر أكتوبر، وفي عام 1960 لمدة ستة أشهر (يناير وابريل ومايو ويونيو وأكتوبر ونوفمبر) . ويلاحظ أنه في السنوات الثلاث السابقة على الاستقلال، تزايدت مهام نائب الحاكم.

تؤكد ذلك عشرات التقارير التي كتبها الوكيل السياسي في هذا الشأن، وسوف أقتبس من بعض هذه التقارير التي كتبت خلال الفترة 1957 – 1960، أي الفترة التي سبقت الاستقلال مباشرة . ففي تقرير للوكيل السياسي 17 يناير عام 1957، لاحظ أن الحاكم لم يعد يهدد بالاستقالة أو التنازل عن الحكم مؤخراً ولكن " الفترات التي يقضيها خارج الكويت أصبحت أطول وعددها أكثر "

وفي عام 1959، تكررت إشارة الوكيل السياسي إلى ذلك، فأشار في تقرير له بتاريخ 11 فبراير إلى أن الحاكم يقضي في الخارج أوقاتاً طويلة، " ويزور الكويت من آن لآخر، وأنه نادراً ما يحكم" . وفي يونيو من نفس العام، ذكر الوكيل السياسي أن عبد الله مبارك يقوم بمهام الحاكم أغلب الوقت. وأضاف في تقرير له بتاريخ 5 أغسطس بأنه يمكن اعتبار الحاكم في حالة " شبه تقاعد في لبنان وأنه يزور الكويت من وقت لآخر ".

وفي عام 1960، أشارت التقارير البريطانية إلى هذا الموضوع عدة مرات. ففي تقرير للوكيل السياسي بتاريخ 19 مايو، كتب أن عبدالله مبارك يمارس "مهام الحاكم بالنيابة" لفترات طويلة.

وفي 5 يونيو من العام المذكور، ورد في تقرير آخر " أن الحاكم يغيب عن البلاد أغلب الوقت، وأنه في فترة غيابه يتولى عبد الله مبارك مهام الحاكم بالنيابة". وفي التقرير السنوي لعام 1960 الذي قدمه المقيم السياسي عن أحوال الكويت، ذكر أن الحاكم استمر في تحاشي التورط في المشاكل اليومية للأسرة الحاكمة والمجتمع الكويتي عموماً، وذلك بإقامته أغلب الوقت خارج الكويت.

وأشارت تقارير القنصلية الأميركية إلى نفس المعنى، مثل ما ورد في تقرير القنصل الأميركي بتاريخ 29 ديسمبر عام 1957 ، وتقريره بتاريخ 29 أكتوبر عام 1959.

وكان ولاء الشيخ عبدالله مبارك للحاكم مطلقاً وبدون حدود. وفي فترات سفر الشيخ عبد الله السالم، حرص على استشارته – تليفونياً – في القضايا الهامة قبل اتخاذ القرار. وأذكر أنه في أكثر من مرة قام بزيارات خاطفة إلى لبنان لمقابلته والتباحث معه وإطلاعه على ما يحدث في الكويت. وليس عندي أدنى شك في أن العلاقة بينهما كانت تتسم بأعلى مراحل الصفاء والسمو الأخلاقي.

وعندما توفي الشيخ عبدالله السالم في عام 1965، عاد الشيخ إلى الكويت لحضور مراسم الدفن، وكان قد زاره قبلها أثناء مرضه في المستشفى. بعد انتهاء الدفن، قام الشيخ صباح السالم، وقبّل رأس عمه الشيخ عبد الله قائلاً له: " الحكم لك يا عمي "، فردّ الشيخ عبد الله بأنه لم يعد لتولي الحكم، وقال: " أنا أثق بكم، وأبارك كل اختياراتكم" .

وتكرر نفس الشيء مرة أخرى في ديسمبر 1977 عندما توفي الشيخ صباح السالم، فقد كان الشيخ عبد الله موجوداً في الكويت. ولما بدأت المشاورات حول اختيار الحاكم ، تردد عليه بعض كبار رجال الأسرة مقترحين أنه الأقرب إلى الحكم، إلا أن أبا مبارك رفض الفكرة، وبارك ترشيح جابر الأحمد أميراً، والشيخ سعد العبد الله ولياً للعهد، وكان ذلك في قصر دسمان.

وكما حرص على وحدة الأسرة وتضامنها، فقد اهتم بصورتها وهيبتها. واعتقد أنه لا ينبغي لأبنائها أن يشتغلوا بالتجارة، ولا أن ينافسوا أحداً في هذا المجال. وكان الشيخ عبد الله يخشى من دخول أعضاء الأسرة مجال التجارة انطلاقاً من أن السياسة والتجارة لا يلتقيان، والتزم بذلك حتى بعد استقالته إلى أن انتقل إلى جوار ربه في يونيو عام 1991. ولعل من الجدير بالذكر أن نسجل أن هذه القيم تغيرت كثيراً بعد الطفرة النفطية واختلطت السياسة بالتجارة.

وأعود إلى سنة 1960 وكيف تداعت الأحداث على النحو الذي تمّ. ففي العام الأخير قبل استقلال الكويت، برزت وجهات نظر مختلفة بين الشيخ عبد الله والأمير حول عدد من الأمور. كانت هناك تطورات مشكلة الحدود مع العراق، وكان رأي الشيخ أن بعض الأطراف الأجنبية ليس لها مصلحة في حل النزاع مع العراق، وأن استمرار تدخلها يؤدي إلى تغذية الخلاف وتمديد أجله. وكانت هناك قضية تسليح الجيش الذي رأى فيه الشيخ درع الدولة والمجتمع، وأكد على أهمية الاستمرار في تطوير قدرته. وكانت هناك قضية التسرّع في إصدار القوانين الوضعية وبالذات مدوّنة القانون المدني والجنائي. ورأى الشيخ ضرورة إتاحة وقت أطول للتشاور والتفكير في الآثار المترتبة على تلك القوانين وذلك حتى يحظى القانون بالشرعية الاجتماعية اللازمة لضمان احترام المواطنين له وتنفيذه. فقد لاحظ الشيخ، مثلاً ، أن بعض مواد القانون لا تعبر عن الأوضاع الاجتماعية لشعب الكويت وقيمه، وأنها

تخالف التقاليد والأعراف السائدة (مساعدة شخص أصيب في حادثة في الطريق العام قبل حضور الإسعاف، أو الحق في استخدام السلاح دفاعاً عن النفس عند اقتحام شخص غريب للمنزل) ، كما أنها لا تراعي الفارق بين ظروف أهل المدن وأحوال البادية والقبائل، وقد أثبتت التجربة والممارسة بعد ذلك صحة وجهة نظر عبد الله مبارك .

والأمر المؤكد أن الخلاف لم يثر حول السلطة أو من يخلف الحاكم، لأن الشيخ عبد الله مبارك كان نائب الحاكم، وكان من ناحية البروتوكول و المراسم يأتي بعد الأمير مباشرة سواء من حيث الجلوس في الأماكن العامة، أو من حيث ترتيب الأسماء في وثائق الدولة والصحافة. وهناك الكثير من الأمثلة و الوقائع الدالة على ذلك ويكفي أن أشير إلى مثلين: الأول، أنه عندما أعطى لسيارات الأسرة الحاكمة لوحات معدنية خاصة عليها رسم علمين متقاطعين، أعطى لكل شيخ رقماً يكون رمزاً للسيارات التي تتبعه كان رقم سيارات الشيخ عبد الله مبارك من 1-1 إلى 1-36، وحملت سيارات الشيخ فهد السالم رقم 2، والشيخ صباح السالم رقم 3، والشيخ حمود الجابر رقم 4، والشيخ مبارك الحمد رقم 5 . والثاني هو رقم جواز سفره الذي كان يحمل رقم 2 بعد الأمير مباشرة، وظل يحتفظ بهذا الرقم في كل تجديد للجواز حتى وفاته.

كان ذلك يعني أنه يتولى الحكم تلقائياً – وحسب التقاليد المرعية في الأسرة – في حالة وفاة الأمير. ولو كان الشيخ راغباً في الحكم وحسب، فما كان عليه سوى الانتظار والترقب. وحتى ما يقال عن التنافس بين الشيخ عبد الله والشيخ فهد السالم، الذي ضخمته بعض التقارير والروايات فإنه انتهى عملياً بوفاة الشيخ فهد عام 1959.

لقد كان سن الشيخ عبد الله، وخبرته في الحكم والإدارة، ونفوذه الفعلي في الجيش والشرطة والبادية، وعلاقاته الخليجية والعربية، تجعل موضوع توليه الحكم بعد الشيخ عبد الله السالم أمراً طبيعياً ويسيراً ومتوقعا من كل الأطراف.

لذلك، فقد كان من الغريب حقاً ما ظلت التقارير الدبلوماسية الانكليزية تردده لسنوات طويلة حول " تطلع" الشيخ عبد الله للسلطة، وسعيه إليها، واحتمال استخدام القوة المسلحة للاستيلاء عليها، إذ لم يرد هذا في حساباته قط. وحتى بعد اعتزاله، فإنه رفض هذا الاحتمال بشكل حاسم برغم وجود فرص مواتيه لذلك، وتشجيع بعض العناصر الداخلية والحكومات العربية له بدعوى أحقيته في الحكم، واعتبر أن مجرد البحث في هذا الموضوع هو خيانة للوطن ولأسرة الصباح.

لذلك، لا أتصور أن الانكليز كانوا بمنأى عن تصاعد الخلافات بين الأمير و نائبه. فقد خشوا من زيادة نفوذ الشيخ عبد الله في الكويت، ومن علاقاته العربية، ومن تأثير توجهاته على منطقة الخليج، وخصوصاً في الإمارات.

ولعلنا نستطيع أن نتصور وقع بعض تصريحاته مثل قوله" إن بلاد العرب للعرب"، ودعمه للجيشين السوري والمصري وإلغائه لتأشيرة دخول الكويت بالنسبة للعرب، وتأييده لتأميم قناة السويس، وحماسته للتضامن العربي والوحدة العربية ".

والخلاصة، أن الشيخ عبد الله لم يكن الشخص الذي يرتاح الانكليز له لاستقلاله برأيه واعتزازه بنفسه. لذلك فقد حرصوا على إبعاده عن السلطة قبل حصول الكويت على الاستقلال. ولعلي أذكر هنا أنني خلال إعداد هذا الكتاب اطلعت على المذكرات السياسية (Political Diaries) التي تتضمن تقارير الوكيل السياسي البريطاني في الكويت، ولاحظت أن المذكرات عن الفترة 25 ابريل – 24 مايو، وكذلك الفترة 25 أغسطس – 24 سبتمبر من عام 1961 لم يكشف

عنهـا النقاب بعد. وبرغم أن هذه الوثائق ليست ذات طبيعة غاية في السرية (Top Secret) ، وبرغم مضـي أكثر من ثلاثين عاماً عليها، فإنه لم يتم توفيرها للباحثين حتى كتابة هذه السطور في نهاية عام 1995، ولعل في ذلك، ربما، إشارة إلى أهمية وحساسية ما تتضمنه من معلومات وتقييمات حول دور بريطانيا في هذا الوقت .

وفي مجال تفسير رغبة الشيخ في الاستقالة، فبالإضافة إلى ما تقدم، اعتقد أن هناك جانباً نفسياً وشخصياً ربما أثر على قراره، وهو زواجه ورغبته في إعطاء وقت أكبر للأسرة. وبالذات لأنه، وبعد أكثر من ربع قرن من الخدمة العامة ، شعر بالاستقرار العائلي وبالمسؤولية تجاه العائلة الصغيرة .

ما زلت أذكر جيداً ما حدث في هذه الأيام، ورغبة الشيخ في الانسحاب من الحياة السياسية دون جلبة أو صدام. لذلك قرر الاعتكاف لفترة في لبنان ، وبالفعل سافرنا إلى بيروت في يناير . وحرص الشيخ خلال هذه الفترة على متابعة المفاوضات مع لندن بشأن صفقة الطائرات. كما حرص على ممارسة حياته العامة بشكل طبيعي، فكان يلتقي برجال السياسة والصحافة بشكل منتظم ويعقد الاجتماعات والندوات اليومية التي كانت تتناول كل القضايا العربية.

ولكن عندما حل موعد زيارة رسمية للملك سعود إلى الكويت في مطلع شهر ابريل، سارع بالعودة ليكون في استقباله حرصاً منه على تضامن الأسرة ووحدتها ، كذلك بسبب الصلة الوثيقة التي ربطت الشيخ عبدالله بالسعودية. وشارك الشيخ عبدالله في احتفالات استقبال الملك، وأعد عرضاً عسكرياً مهيباً للجيش الكويتي، واستضاف أبناء الملك في قصر مشرف. حينذاك ذاعت أنباء بأن الملك سعود توسط بين الحاكم والشيخ ولكن الأرجح أن ذلك لم يكن صحيحاً.

أتذكر جيداً أحداث الليلة السابقة لمغادرتنا الكويت للمرة الثانية:

كنا نجلس في حديقة القصر الأبيض على الأرض. كان الليل قد ألقى بظلاله بعد انصراف ضيوف "الديوانية"، وبقي عدد من المقربين إليه من بينهم الشيخ مبارك العبد الله الجابر، وحمد الحميضي، وسليمان الموسى، ومحمد جعفر، وعبدالرزاق القدومي، ويعقوب بصارة، وسالم بوحديدة، وعزت جعفر. كنت أجلس إلى جواره، وأتذكر أنه دعا عزت جعفر للاقتراب منه وسلمه رسالة، وطلب منه تسليمها للشيخ عبدالله السالم . وكانت الرسالة تتضمن خطاب استقالته الذي كتبه بخط يده إلى أمير البلاد. وحرصاً منه على أن يترك للأمير اعلان الاستقالة بالشكل الذي يريده، وفي التوقيت الذي يراه، فقد ترك التاريخ دون تحديد، وطلب من جبره شحيبر اعداد الطائرة للسفر إلى لبنان وبالفعل سافرنا يوم 17 ابريل .

صعدنا إلى الطائرة في السادسة صباحاً، وكان في وداعنا عدد من الأصدقاء . وصعد معنا الشيخ مبارك العبد الله الجابر الذي كان الشيخ بالنسبة له أباً ومعلماً، وحاول ثنيه عن السفر، وأجهش بالبكاء من شدة تأثره. وقتها قال الشيخ: إنه ترك الكويت في أيد أمينة، وأنه بلغ مرحلة آن له فيها أن يخلد للراحة. وبعد أيام من سفرنا، أرسل الشيخ عبد الله السالم وفداً يضم الشيخ مبارك العبد الله الجابر وحمد الحميضي وناصر الصباح يحملون رسالة من الأمير يطلب فيها من الشيخ عبد الله العودة للتفاهم. فقال الشيخ أن موقفه معروف ورأيه في القضايا موضع الخلاف ليس محلاً للتغيير.

وعندما اندلعت الأزمة مع العراق في يونيو، لم يكن الشيخ عبد الله ليسمح لنفسه بأن يكون في الخارج في الوقت الذي تتعرض فيه الكويت للتهديد، فسارع إلى العودة مرة ثانية يوم 27 يونيو، وأبدى استعداده للعمل كمواطن كويتي- في أي موقع . وعندما شعر بأن وجوده قد يسبب حرجاً لآخرين، عاد إلى بيروت في اليوم التالي

مباشرة، وأعلن وقتها أن الأمير قد طلب منه الاتصال بالأمين العام لجامعة الدول العربية لتنسيق المواقف المؤيدة للكويت.

وخلال هذه الأزمة، استخدم الشيخ عبدالله علاقاته بضباط الجيش العراقي لتعطيل مخططات الاقتراب من الحدود الكويتية. وساهم في ذلك قائد الفرقة المدرعة الثالثة، الذي قام الشيخ بعد ذلك بترتيب منحه حق اللجوء السياسي إلى مصر.

أقمنا في بيروت لفترة في 29 أغسطس عام 1961 رزقنا بأول أطفالنا مبارك – الذي ملأت ولادته حياة الشيخ بهجة وفرحاً. وفي مايو من العام التالي، عاد إلى الكويت لحضور مراسم دفن شقيقته الشيخة حصة أرملة الشيخ سالم الحمود ووالدة زوجة الشيخ صباح الأحمد . وفي شهر يونيو، زار مصر والتقى الرئيس جمال عبد الناصر. وفي سبتمبر قام بجولة شملت ايطاليا والمانيا والنمسا والمغرب.

وفي عام 1963، قام الشيخ بزيارة إلى الفاتيكان والمقر البابوي وقابل البابا. ورغم أن الشيخ لم يكن يتولى منصباً رسمياً أو حكومياً، ومع أن معاوني البابا طلبوا منه عدم إثارة قضايا سياسية في المقابلة، فقد طرح الشيخ موضوع الزيارة المرتقبة للبابا إلى إسرائيل، وما إذا كان هدفها سياسياً أو دينياً. وأكد له البابا الطابع الديني للزيارة وأنها لا تعني تغيراً في موقف الفاتيكان تجاه القضية الفلسطينية، و " أن زيارة الأماكن المقدسة تبقى في إطار العوامل الدينية التي أملتها" .

وفي هذه الفترة استمرت الشائعات السياسية في مطاردة الشيخ. ففي ديسمبر عام 1962، أخبر الملك حسين السفير البريطاني في عمّان بأنه حصل على معلومات تشير إلى قيام الشيخ عبدالله مبارك بالإعداد لانقلاب، وأنه سوف يستخدم بعض الجنود المرتزقة لتحقيق ذلك، وأنه على اتصال بعبدالناصر أو قاسم. وعلّق السفير البريطاني بعمان في برقيته التي أرسلها إلى لندن بأنه حرص على إبلاغ الوزارة

بهذه المعلومات برغم عدم ثقته فيها، وأنه لا يعتقد في وجود صلة بين الشيخ وعبدالكريم قاسم.

وأرسلت وزارة الخارجية البريطانية هذه المعلومات إلى سفارتيها بالكويت والقاهرة للتأكد منها، فردّت السفارة البريطانية في الكويت بأن هذه المعلومات "غير محتملة" ، وردت السفارة البريطانية في القاهرة بأنه لم يصلها أي معلومات تتعلق بذلك.

والحقيقة، أن عبدالله مبارك رفض أي تدخل خارجي أو وساطة في العلاقة بينه وبين إخوته من أسرة الصباح. كما رفض بعنف محاولات بعض الدول التي سعت لاستثمار هذا الخلاف، أو العروض المستترة التي قدمها البعض لدعمه لاستعادة منصبه في الكويت. كان يكرر دوماً: "لقد استقلت بمحض إرادتي، وسجلي أحمله بيميني، ودوري محفور في تاريخ الكويت لا يمكن أن ينكره أحد" .

وفي عام 1965، ترددت الشائعة مرة أخرى وكان مؤداها أن الشيخ يدبر لانقلاب عسكري، ويؤلف حكومة في الخارج. لذلك سارع الشيخ بالعودة إلى الكويت وكأن لسان حاله يقول: ها أنذا موجود بينكم، أنا لا أقبل أن أفعل أي شيء ضد وطني وأسرتي وأهل بيتي . وكان في استقباله في المطار الشيخ خالد العبدالله السالم ، والشيخ جابر الأحمد، والشيخ محمد الأحمد الجابر، والشيخ سعد العبدالله السالم. وعاد مرة ثانية للكويت في سبتمبر للاطمئنان على صحة الشيخ عبدالله السالم . وعند وفاته في أكتوبر، سارع بالعودة وشارك في الجنازة ومراسم الدفن.

وخلال فترة إقامتنا في بيروت، لم يتوقف الشيخ عن نشاطه السياسي. كان بيتنا بمثابة خلية نحل يرتادها الكويتيون الذين يحضرون إلى لبنان، ويعج بالصحفيين والسياسيين اللبنانيين من كل صوب واتجاه. واستخدم الشيخ نفوذه السياسي والأدبي لدعم الرئيس جمال عبد الناصر وسياساته. ويبدو أن ذلك كان موضع متابعة وتقدير

من أجهزة السفارة المصرية في بيروت كما يعكس ذلك التقرير المؤرخ في 21 فبراير 1963 بعنوان " نشاط وميول والاتجاه السياسي للأمير عبد الله مبارك الصباح". وقد استمرت إقامتنا في بيروت حتى عام 1965 عندما قررنا الانتقال إلى القاهرة، وذلك بناء على دعوة من الرئيس عبد الناصر. كنا في باريس عندما تلقينا الدعوة للإقامة في مصر، التي تضمنت أن الرئيس يرى أن القاهرة هي المكان الطبيعي لإقامة ا لشيخ عبد الله . ولذلك عدنا مباشرة من فرنسا إلى مصر. وتعددت مساكننا في القاهرة، فأقمنا في " قصر العروبة" بشارع خليل أغا بجاردن سيتي، وفي " قصر العروبة " برشدي بالاسكندرية، ثم أخيراً بمنزلنا بشارع العروبة بمصر الجديدة.

وخلال إقامتنا بمصر، عاملت السلطات المصرية الشيخ عبدالله معاملة خاصة، وكانت العلاقة بين الشيخ وعبدالناصر وقادة الثورة وطيدة ومتميزة. فأصدر الرئيس جمال عبد الناصر توجيهاته لمنح الشيخ حق الاعفاء الجمركي. لذلك فقد اندهشت كثيراً عندما أورد الأستاذ محمد حسنين هيكل معلومات خاطئة ولا أساس لها في كتابه " خريف الغضب" ، والذي زعم فيه أن أنور السادات طلب من الرئيس عبد الناصر إضافة مميزات الحصانة الدبلوماسية على الشيخ عبدالله "حتى يستطيع استيراد ما يحتاجه من الخارج بدون جمارك" وأن الرئيس عبدالناصر رد على ذلك بأنه "لا مجال لقبول الطلب لأنه استثناء يسيء إلى السادات وإلى الصباح معاً، فليس لمسؤول رسمي أن يطلب استثناء من هذا النوع مهما كانت الأسباب. ثم إن إعطاء استثناء للشيخ مبارك لا يتمتع به غيره من اللاجئين السياسيين إساءة إليه أيضاً " .

والغريب أن يذكر الأستاذ هيكل هذه الواقعة – وهو الذي كان قريباً من الرئيس عبد الناصر والذي يفاخر بأنه لا يكتب من الذاكرة وإنما يعتمد على الوثائق في ما يعرض له من موضوعات. فالحقيقة، أن وزير الخزانة د. نزيه ضيف أصدر

القرار رقم 22 لسنة 1966 الذي نشر في الوقائع المصرية – وهي الجريدة الرسمية في مصر – تحت عنوان " بشأن إعفاء ما يرد للشيخ عبد الله مبارك الصباح من أشياء للاستعمال الشخصي من الضرائب والرسوم الجمركية ". وجاء في ديباجة القرار أنه اتخذ بناء على اقتراح من وزارة الخارجية، وليس من المتصور أن تقترح وزارة الخارجية مثل هذا الإجراء دون موافقة صريحة من الرئيس عبد الناصر.

وكان للشيخ ترتيب بروتوكولي متميز في المناسبات والاحتفالات السياسية التي يحضرها الرئيس، مثل افتتاح دورة مجلس الأمة أو الاحتفال بذكرى ثورة يوليو، أو زيارة بعض رؤساء الدول العربية. كما كان الرئيس يدعوه في المناسبات الخاصة، مثل حفل زواج كريمته هدى في عام 1966 ثم حفل زواج كريمته منى بعد ذلك .

وعندما توفي عبد الناصر في عام 1970، كان الشيخ من أوائل من سارعوا بالذهاب إلى منزل الأسرة في منشية البكري ثم إلى قصر القبة. واستمر هذا الترتيب البروتوكولي المتميز للشيخ في عهد الرئيس السادات.

وخلال هذه السنوات كلها ، حرص الشيخ على مواصلة دوره الوطني والقومي. فعندما وقع الانفصال السوري عن الجمهورية العربية المتحدة في 28 سبتمبر عام 1961، ارتفع صوت الشيخ في الصحافة اللبنانية منددًا بالحدث. وبمناسبة أسبوع نصرة الجزائر في لبنان تبرع الشيخ بمائة ألف ليرة . وبمناسبة إعلان قيام الاتحاد الثلاثي بين ج.م.ع وسوريا والعراق في عام 1963 ، أهدى الشيخ 100 سيارة

جيب للجيش المصري ، وقام بدعم اتحاد طلاب فلسطين في غزة ، والتقى الرئيس عبد الناصر في

مارس عام 1964. وفي عام 1966، أرسل الشيخ شيكاً بمبلغ مليون دولار للرئيس المصري عبد الناصر " تاركاً للرئيس أمر توجيهه إلى أي غرض من أغراض النفع العام كما يراه" وخصص الرئيس المبلغ للكليات العلمية بجامعة القاهرة وبالذات مستشفى قصر العيني.

وعندما نشبت حرب 1967 وعلم الشيخ بحاجة مصر إلى بعض الاحتياجات الطبية والدوائية، سارع – وكنا في جنيف – بتدبير المطلوب من خلال صيدلي من أصل مصري – د. غليونجي – وتم إرسال عدد من عربات الإسعاف والأدوية كما

تبرع بمليون دولار لصالح الجيش المصري. وفي عام 1973، تبرع الشيخ بمليون جنيه مصري لصالح المجهود الحربي. واستمر دعمه للقضية الفلسطينية، وفي أعقاب الغزو الإسرائيلي للبنان في عام 1982 ، تبرع الشيخ بمبلغ مليون دولار نصفها في شكل أدوية ونصفها الآخر نقداً للمقاومة الفلسطينية، وقد أرسلت عن طريق الصليب الأحمر الدولي في جنيف.

في عام 1973، فقدنا ابننا الأكبر مبارك. كنا مسافرين من القاهرة إلى جنيف. جلست بمفردي مع مبارك عندما داهمته أزمة ربو في الجو، وعندما هبطت الطائرة في أثينا، كان الله قد استرد وديعته. وعندما حضر أبو مبارك، حاول أن يبدو متماسكاً ولكني أدركت أن شرخاً كبيراً كان قد تسلل إلى داخله.

عدنا إلى القاهرة، وكان الرئيس السادات في استقبالنا في المطار. وأتممنا مراسم الدفن. وبنى "أبومبارك" مدرسة ومسجداً بجوار البيت الذي دفن مبارك في

حديقته. وأسجل هنا أن الرئيس السادات كان شهماً وكريماً، فلم يشارك في الجنازة وحسب، بل اشترك مع الشيخ في مراسم الدفن.

وفي نفس العام، انتهيت من دراستي بكلية الاقتصاد بجامعة القاهرة، وحصلت على درجة البكالوريوس في الاقتصاد، ثم اجتزت امتحانات السنة التمهيدية للحصول على الماجستير. وفي عام 1974 سافرت إلى بريطانيا لاستكمال دراستي العليا في الاقتصاد من جامعة سرّي (Surrey)، وشجعني الشيخ على طلب العلم، وسافر معي، واستقر بنا المطاف في لندن. وترددنا باستمرار على الكويت، وحرص الشيخ على قضاء شهر رمضان فيها في كل عام، حتى عدنا إليها عام1978.

وخلال هذه السنوات، لم أشعر أبداً بأن الشيخ عبد الله ندم على استقالته، بل كان يشعر بأنه أخذ فرصته كاملة، وقام بدوره في خدمة وطنه. ولكن ألمه الأكبر كان بسبب الجحود وإنكار الجميل والشائعات التي ترددت حوله. لا أستطيع أن أنقل بالكلمات مدى الألم الذي كان يعتصره عندما تصل إلى سمعه محاولات البعض لتشويه أسمه والتقليل من الدور الذي قام به في تاريخ بلده، وكأن الكويت ولدت من فراغ ، أو كأنه لم يكن هناك رواداً وضعوا الأساس في مرحلة ما قبل الاستقلال. كان يعلق بقوله : إنه لن يصح إلا الصحيح وأن الله لن يضيع أجره. وكنت أراقبه أحياناً وهو يقرأ عن أمر ما في الصحافة الكويتية ثم يقول " حسبي الله ونعم الوكيل " فقد كان إيمانه بالله عميقاً راسخاً لا يتزعزع، وواجه قدره بشجاعة الرجال. وفي أوقات الراحة كان يسعد بكتابة آيات من ا لقرآن الكريم .

ولكنه لم يفكر قط في استخدام علاقاته الواسعة مع رجال الصحافة والإعلام للرد على هذه الافتراءات. فما كان الشيخ يتصور أن يكون خلف حملة إعلامية تستهدف انتقاد سياسة بلده وأسرته. لذلك فقد التزم الصمت، ولم يدل بأي تصريح

صحفي حول الشؤون الداخلية أو الخارجية للكويت خلال الثلاثين عاماً التي مرت ما بين استقالته ووفاته، أو عن أسباب هذه الاستقالة . وأذكر أن الرئيس عبد الناصر امتدحه كثيراً لاّتباعه هذا المسلك الذي يدل – حسب قول الرئيس له – على عزة النفس والثقة بالذات .

لم يكن أيضاً مستريحاً لبعض ما حدث في الكويت تحت تأثير الثروة، وكان يقول : إن تلك لم تكن هي الكويت التي سعى هو وأبناء جيله لبنائها. انتقد " الاتكالية " السائدة بين بعض الشبان ، كما انتقد ازدياد نسبة غير العرب بين المقيمين، وكان يقول : إن هذه التركيبة " لا تقيم وطناً ولا جيشاً " ، وأعتقد أن الإنسان لن يعطي بإخلاص للدولة إذا كان لا يحمل جنسيتها. رأى ضرورة تجنيس أهل البادية، كما رأى ضرورة التوسع في تجنيس العرب الذي أقاموا بالبلاد لفترات طويلة .

لم يكن منغلقاً أو رافضاً للتجديد بدليل دعمه وتشجيعه لي، ولكنه رأى أن الشهامة قد ضعفت وفقدت معناها. وجد مرة شخصاً يسير أمام والده فقال:

" من يفعل هذا لا يحضر لي مجلساً، فهذه تصرفات لا نعرفها ولم ننشأ عليها"

وكان يقول أن النفط قد لوث بعض أخلاقنا. وكثير من قصائدي وكتاباتي هي من وحي أفكاره وتعليقاته.

من كتاب " صقر الخليج "

ص 251 - 268

قصتي مع (آخر السيوف)



بقلم د: سعاد محمد الصباح

يوم طلبني الشيخ عبد الله المبارك للزواج عام 1959 ، كان الطلب بمثابة زلزال قوي هز أعماقي ، لم أصح منه إلا بعد وقت طويل .

كان عبد الله المبارك بالنسبة لصبية صغيرة لا تزال تلبس المريول المدرسي ، بطلاً من أبطال الروايات التي كنت أقرؤها .

وفي مرحلة المراهقة ، ما أكثر الأبطال الذين حلمنا بهم ، وتمنينا أن يخطفونا ذات يوم على حصان أبيض ، ويغمرونا بحبهم ، و حنانهم ، وكرمهم ، وفروسيتهم .

ولقد كان من حسن حظي ، أن فارسي لم يتأخر كثيراً . . وعندما طرق الباب . . عرفتُ أن الروايات الجميلة والمثيرة التي قرأتها في طفولتي صارت واقعاً . وأن بطلي الذي طالما استحضرته في الأحلام صار زوجي .

في البداية خفت من مواجهة البطل .. ظننت أن البطل مخلوق أسطوري لا يسمح لفتاة صغيرة مثلي أن تلامسه ، أو تقترب منه ، أو ترفع الكلفة بينها وبينه . ولكنني عندما أصبحت زوجة لعبد الله المبارك ، تبددت مخاوفي ، وتأكدت أن البطـل . . يمكن أن يكون إنساناً كبيراً ، وصديقاً كبيراً وزوجاً عظيماً . في الوقت ذاته .

قد يكون عبد الله المبارك لدى من عرفوه من الخارج ، حاكماً قوياً حديديَّ المواقف في الحق ، ولكنَّ الذين عرفوه من الداخل مثلي ، يعرفون كم كان حنوناً ، وشفافاً ، ورقيق الإحساس .

من كان يصدق أن هذا الجبل الشامخ من الكبرياء . . كان يتحول معي ومع أولاده إلى ينبوع من الرقة والحنان ؟

بل من كان يصدق أن هذا الرجل القوي يبكي أمام المواقف العاطفية كطفل ؟

في عبد الله المبارك كانت تجتمع البداوة، والحضارة، والمحافظة والليبرالية، وقداسة الماضي، وطموحات العصر .

أن عينـه دائماً تتجه إلى المستقبل ، وفكره يتأقلم بسرعة مع المكان الذي يكون فيه ، فهو في الكويت كويتي ، وفي لبنان لبناني ، وفي سويسرا سويسري .

أهم ما في عبد الله المبارك أنه كان دائماً مع العصر . . . ومع الحداثة . . . ومع الجديد وهذه الحداثة في فكره تركت بصماتها عليَّ وعلى أولاده .

وبالنسبة لي، لم (يُخبِّئني) عبد الله المبارك خلف الستائر، ولم يحبسني في قارورة، وإنما أدخلني إلى مجلسه، وقدّمني إلى زواره، وشجعني على المشاركة في كل الحوارات السياسية التي كانت تدور في ديوانيته .

وعندما كنا في لبنان ، في الأيام الأولى لزواجنا ، كنت استقبل كبار السياسيين والصحفيين والمثقفين اللبنانيين معه ، وأشارك في كل ما يدور من أحاديث

سياسية، وأدبية وثقافية وعندما أقمنا في القاهرة في زمن الرئيس جمال عبد الناصر، أعطاني الفرصة لأشاركه في كل تفاصيل حياته وعلاقاته مع صانعي القرار في مصر ، ومع نجوم المجتمع السياسي والأدبي والصحفي، مما وَّسع آفاقي وأغنى ثقافتي وتجربتي.

ومن أهم أفضال عبد الله المبارك عليّ، أنه (صَنَعني) فكرياً وثقافياً ، حين فتح أمامي الضوء الأخضر لأواصل تعليمي، واستكمل معارفي، فدخلت جامعة القاهرة.

وحصلت على بكالوريوس في الاقتصاد رغم مسؤوليات الأمومة، والبيت الكبير.

وعندما عبرت له عن رغبتي في التحضير لشهادة الماجستير والدكتوراه في أحدى الجامعات البريطانية، لم يكسر أحلامي، وإنما قرر أن نسافر جميعاً إلى لندن لنكون معاً خلال فترة دراستي. هذه المواقف الرائعة إذا دلَّت على شيء، فإنما تدل كم كان عبد الله المبارك يحترم عقل المرأة، وكم كان يحترم العلم والمعرفة ، والثقافة، وكم كان طليعياً في نظرته إلى حق المرأة في التحرر من التبعية، والهامشية، والجهالة .

قليلون هم الرجال الذين يضعون نساءهم على أكتافهم، ويصعدون بهم إلى قمة الجبل . . في هذا الوطن العربي .

وأشهد أن عبد الله المبارك حملني على أهدابه ، وعلى أكتافه حتى أوصلني وأولادي إلى شاطيء السلامة.

وبالرغم من أنني تزوجتُ عبد الله المبارك وهو في ذروة السلطة والنفوذ، وبالرغم من حداثة سني وتجربتي في أول أيام الزواج، إلا أن عبد الله المبارك شاركني في كل قضاياه وشؤونه الكبيرة والصغيرة.

يعتز بوجودي إلى جانبه ، ويقول لضيوفه : إن أم مبارك هي دعامة البيت ووردته ، وهي مصدر الخير والبركة .

ليس هناك أسرار أحجبها من حياة عبد الله المبارك . . . فهو كتاب مفتوح أحمله في عنقي ، وأتلو كلماته على أولادي فيتعطرون بمجد أبيهم . . طويلةّ . . طويلةّ . . هي حكايتي مع عبد الله المبارك

أما علاقتي بأولادي فهي تتحرك على ثلاثة محاور أساسية :

أولاً: محور الديمقراطية

ثانياً: محور الصداقة والاحترام، واحترام الرأي الآخر بصرف النظر عن السن والجنس.

ثالثاً: محور الانتماء إلى التراث الديني والأخلاقي والقيم الموروثة .

فالديمقراطية التي أطبقها في حياتي العامة ، وأؤمن بها كخط فكري وثقافي، وسياسي، أطبقها في بيتي لأنني أعتقد أن البيت الذي لا ديمقراطية فيه . . . هو أقرب إلى المعتقل .. منه إلى البيت السعيد .

لذلك منذ أن أصبحت أماً ، أرضعت أولادي حليب الديمقراطية، وقررت أن أكون صديقتهم التي يتكلمون معها بصراحة وحرية . . بعيداً عن عصا القمع والإرهاب. . .

لا إرهاب في بيتنا أبداً . فالكلُّ سواسية في التعبير، والحوار، والمناقشة سواء كانوا ذكوراً أم أناثاً. ولابنتي الصغيرة الشيماء من الحقوق ما لأبني الكبير محمد. فنحن في بيتنا لا نعرف التمييز، والتعصب، والتفرقة العنصرية. ولذلك نشأ الأولاد في جو صحي لا يعرف المشاحنات، والمشاجرات، والبغضاء .

المحور الثاني هو محور الصداقة التي ربطت بيني وبين أولادي، فأنا أستمع إليهم، وأساعدهم على حل مشاكلهم، دون اللجوء إلى الصراخ والعصبية.

وعندما تكون الأم صديقة لأولادها، فإنهم يلجأون إليها في أزماتهم ، بدلاً من أن يلجأو إلى الغرباء وأصدقاء السوء .

المحور الثالث هو محور الانتماء إلى عالم القيم : فكل بيت يجب أن يقوم على أساسات ثابتة من المباديء والقيم الدينية والقومية والأخلاقية والاجتماعية، كالصدق، والاستقامة، وعمل الخير، ومحبة الآخرين، والإحساس مع الفقراء والمرضى، والنضال من أجل

كرامة الوطن ، وتقدمه ، وحريته .

وإذا لم نزرع هذه البذور في وجدان أولادنا منذ طفولتهم ، أضاعوا اتجاههم ، وتناثروا كالأوراق في مهب الريح . إن الحجر الأول في عمارة الوطن يوضع في البيت . .

وأنا أحمد الله أن أولادي تعلموا من أبيهم ومنّي كيف ينتمون إلى أرضٍ و وطنٍ وتاريخ.

عن كتاب: رسائل من الزمن الجميل..

الرجل النموذج



من يتابع لقاءات السياسيين والمشتغلين بالشأن السياسي في الكويت؛ سواء من الوجوه القديمة أو الجديدة، سيلحظ حتما أن اسم الشيخ الراحل عبدالله المبارك الصباح -طيب الله ثراه- كان له نصيب الأسد من بين الأسماء التي ترددت في تلك الحوارات واللقاءات والندوات، كنموذج للرجل الذي تخلى عن السلطة بطوعه وإرادته واختياره، عندما رأى أن مصلحة بلاده تحتم ذلك الخيار الصعب، مع علمه أنه كان يملك الحظوة والتقدير الكبير من أفراد الأسرة الحاكمة كافة، ومن كل أطياف المجتمع، حيث امتدت علاقاته في الداخل والخارج كرجل قومي يشجع الحريات ويتبنى الفكر العروبي، من خلال علاقته الوطيدة مع القبائل في الجزيرة

العربية، ومن خلال علاقته مع كل الدول العربية قيادات وشعوبا، والتي توجها بتعبيره عن المحبة لأمته، بإلغاء تأشيرات دخول العرب إلى الكويت في فترة توليه منصب نائب الحاكم في الكويت، لكن ذلك الامتداد والرسوخ لم يعجب القوى العظمى، وفي مقدمتها بريطانيا، التي سعت إلى إزاحته ومضايقته بكل الطرق كي لا يتولى الحكم في الكويت، ولأنه نهل الحنكة والحكمة من مدرسة مبارك الكبير، ودرس الأوضاع، اختار أن يعتزل الحياة السياسية تماما، ويترك الأمر طوعا لمن يكمل المسيرة من بعده، والوثائق البريطانية مليئة بتفاصيل تلك المرحلة وذلك الحدث، وأظن أن الشيخة د.سعاد الصباح تملك الكثير منها.

السياسيون رددوا هذا الاسم الكبير كأنموذج فذ للتضحية، والقدرة على اتخاذ القرار الحكيم في الوقت المناسب تماما.. وهو فعل يستحق الإعجاب ولا يقدم عليه إلا قلة قليلة

من الناس.. فالتخلي عن السلطة طواعية لايقدر عليه إلا الكبار.. في وقت تذبح بعض الشخصيات شعوبا وقبائل إرضاء لشهوة الكرسي وسطوة السلطة..

كم تحتاج الكويت إلى أمثال عبدالله المبارك الصباح، الذي ترك من بعده ذرية طيبة تشبهه، فالأرض المباركة دوما يأتي زرعها مباركا، وثمارها من أطايب الثمر..

وصدقت أم مبارك إذ قالت عنه:

صعب على الأحرار أن يستسلموا

قدر الكبير بأن يظل كبيرا

نشر في جريدة الكويتية

بتاريخ: 24 يناير 2012

رحلة قنص مع عبدالله المبارك



المصدر : جريدة اليوم اللبنانية

25 يناير 1952

مع سمو الشيخ عبد الله المبارك - 48 ساعة ، رحلة صيد في صميم البادية
رحلات الصيد هي السلوى الوحيدة الشائعة في الكويت
" الصقر " الطير الجارح كيف يروض على الحياة والخدمة

تحدثت في الفصول الأولى عند وصولي إلى الكويت عن أشخاص رأيتهم عند مدخل دوائر الأمن يجلسون تقريباً في صف واحد " . . " وعلى ايديهم طيور " . . . " ذات نظرة حادة . .

عرفت فيما بعد ، أن تلك الطيور هي من نوع الصقر - الطير الجارح المفترس . . .

وعرفت أن أولئك الأشخاص ، هم مربو ، بل ، على الأصح ، مروضو" الصقر " و" ممدنوه" ! ! . .

و اعني هنا بالتمدن - معنى غير سياسي ومفهوماً غير مفهوم الغرب في التمدين - لكل "صقر" شخص يقوم على العناية به ، ومهمته - أي مهمة الشخص - طيلة ساعات النهار ، حمل صقره على يده ، أنى ذهب، وكيف جلس . . فهما اثنان في واحد ، اثنان لا يفترقان ! قيل لي ، أن الصقر ، بهذه الطريقة واذ يتعود على الحياة ، بمرأى الناس ، ومرافقة كل مظاهر الحياة ، يتطور فيخرج عن طبيعته، ويصبح أليفاً ، أن بعث به صاحبه عاد إليه، و إن فارقه لم يشأ مفارقته!

* * *

وأدركت فيما بعد أهمية الصقر ، في حياة الكويت ، وقيمة أولئك الأشخاص الذين يشرفون على تربيته " مدنياً " وترويضه !

إذ عرفت أن الصقر ، وأولئك الأشخاص ، هم العدة الرئيسية لهواية الصيد ، التي يقبل عليها الكويتيون بلذة لا تعادلها لذة .

وهواية الصيد يجب أن تعتبر سلوى الكويت الوحيدة ، حيث لا توجد بعد أسباب السلوى واللهو ، المألوف في كل نواحي حياتها ، وليس هناك أي تفكير حالي لتجاوز الوضع الراهن .

بالاكرام الزائد الـذي احاطني به الشيخ عبـد الله المبارك ، أحب أن يشركني في رحلة صيد ، ترفه عن النفس ، وتتيح لي أن أرى البادية في صميمها . . والطير كيف يفترس الطير . . والصقر الجارح ، كيف يصبح ، مع العادة أليفاً ، في خدمة الإنسان !

إنني لازمت الشيخ عبد الله المبارك في أربعة عشر يوماً فما اذكر منه ، وله ، إلا نبل الصداقة ، ومنتهى اللطف ، ولباقة التصرف الصادر عن نفس كريمة -.

كان الترتيب ، كما رسمه الشيخ عبد الله ، نفسه ، ان يسبقنا ومرافقوه العديدون إلى النقطة التي يقصدون في تلك الرحلة حيث يقيمون المعسكر فنلحق بهم في اليوم الثاني . وقد اتفق سموه ، مع الأخ عزت جعفر ، على الوقت والمكان . وكان مقصود هذا الترتيب مبالغة في توفير الراحة لنا ، بمعنى أن نصل ، وكل شيء جاهز.

وفي صبيحة اليوم الثاني جاءني الأخ عزت وهو بلباس الصيد - ولرحلات الصيد في الكويت استعداد خاص - ، ثم وجدت أن السيارة التي التي كانت موضوعة تحت تصرفي ، منذ وصولي إلى الكويت قد تبدلت بسيارة أخرى من نوع آخر ، فأعجبني

أن أسال السائق درويش - وهو باكستاني الأصل - عن سبب تغيير السيارة فأجابني على طريقته :

- عمي ، هكذا أوصى الشيخ عبد الله ، إدارة الكاراج ، فهذه أقوى لطريق الصحراء .

و الحقيقة أن الشيخ عبد الله لم يترك بلطفه ، ناحية إلا واحتاط لها. فأوصى، بإعداد سيارة ثانية ، للزاد والماء ، والفاكهة ، كما أوصى ، السيد عبد الرزاق ابراهيم ، أحد أعوانه ، بمرافقتنا . وأبقى السيد نزال - ابو خالد - ليسافر معنا . والسيد نزال معروف بأنه اقدر خبراء الكويت في طريق البادية يعرفها شبراً شبراً ، ويسير في افقها الواسع ، وكأنه يسير في شوارع مدينة يعرفها ، ويألفها .

اتجهنا إلى طريق الأحمدي - مع هذه الترتيبات - قاصدين البادية . وقيل لي أن الشيخ عبد الله اقام صيوانه في (الفو) على بعد 360 كيلو متراً منا أي داخل الأرض السعودية - بادية نجد - وأن تلك المسافة تحتاج إلى مسير خمس ساعات ، وقدر السيد نزال، أن نكون هناك في الساعة الواحدة حيث كان الجميع بانتظارنا ، للغداء .

تولى الأخ عزت قيادة السيارة بنفسه ، وكان معنا ، فيها الأستاذ نصار حسين ، والسيد نزال ، وانطلقت السيارة الثانية - أمامنا - ولكنها ، لم تلبث أن توقفت ، قبيل "الأحمدي" بقليل لعطل بسيط طرأ عليها ، فوجد السيد عبد الرزاق ابراهيم ، تحوطاً " ، أن تبدل بسواها . . وبالانتظار تأخرنا عن الوقت المحدد ، أكثر من ساعة !

- خرجنا - في استئناف المسير - إذ وصلنا (الأحمدي) على مقر الشيخ جابر الأحمد ، نحييه ، ونتـزود من قربه - ثانية - بالبنزين - شدة في الاحتياط - ورأى

الشيخ جابر تأخرنا ، وأدرك بأننا لن نوافي الغداء في وقته ، فأمر رجاله بتزويدنا بكمية من السندويتش

مؤونة الطريق .

اجتزنا الأحمدي ومنشئات شركة النفط ، لنقبل على آبار البترول ، البئر تلو البئر ، تفصل الواحد عن الآخر مسافة معينة ، وقد غطيت سطوحها بأغطية ، من الزنك ، محكمة مرقمة . . وكان لي أن أشاهد اندلاع النيران ، إلى اليسار ، وهي لم تعد تبعد كثيراً . .

وعلى مسافات متقاربة وكان بإمكاني تبين انابيب الغاز - عدة أنابيب - مرتفعة قليلاً عن سطح الأرض ، والنيران تنبعث بشدة من فوهتها .

كانت الرمال إلى هذه الجهة - وبعد أن انتهى طريق الاسفلت في آخر مركز لشركة البترول - تلبد الطريق وتهدد ، دائماً بوقف السيارة ، ولكن الأخ عزت جعفر ، كان يتولى قيادتها بمهارة ، ومعرفة دقيقة لمنبئ تلك الأرض ، حتى تمكنا - وبتهنئة الخبير السيد نزال من اجتياز قطاع الرمل الخطر !

واستقبلنا ، على التوالي ، وجه البادية ، ذلك الخصم الذي ليس له حد يعرف ، ولا عرض يوصف ا نطوي الأرض طياً لنظل بذات المنظر والوجه واحداً لا يتغير ، لا شجر ولا أثر بل اغبرار تخالطه نتوءات عشبية هي في اصفرارها أقرب لإلى الموت منها إلى الحياة .

وكانت الساعة تلو الساعة تمضي جدباء لولا أخبار الراديو احياناً ، ولولا الأقاصيص الممتعة ، التي كنا نتداولها لترطيب (جفاف) الباديــة من تلك الأقاصيص لترطيب (جفاف) البادية كانت هذه :

والرواية – نعم الرواية – الأخ عزت جعفر – كنا قد اجتزنا تلة حسبتها في البدء كثيب رمال ، فكانت في الحقيقة – كما أوضح لي – كتلة صخرية يفخر بنوعها في تلك الصحراء المنبسطة كالكف . . التي لا صخر فيها ، ولا حجر. لا في الطول ولا في العرض الكتلة الصخرية – أو بالأصح – ذلك البطن النتيء في ناحيته معروف باسم (وارة) استعملته شركة النفط الكويتية لحاجتها في الإنشاء والتعمير ، فأفادت من نحته وكانت عمليات التجويف والنسف ظاهرة !

(وارة) حاضر هو ما ذكرت ولكن لها أيضاً قديماً و " تاريخياً " - والقصد دائماً ترطيب جفاف الصحراء ، فأرجو أن يجتاز معي القارىء ، الجفاف !

قال عزت : - تخاصمت قبيلتان ولعل ذلك في العهد الجاهلي وتخونني الذاكرة في ايراد الأسماء – فأرد سيد أحدى القبيلتين المتخاصمتين ، أن ينتقم من الثانية فتمكن من أسر 99 رجلاً منها جاء بهم إلى (وارة) حيث اضرم النيران ، عالية ، وألقى بالـ 99 أسيراً في اتونها . . فكان طبيعياً أن تفوح رائحة اللحم ، وأن تنتقل إلى بعيد بعيد !

وتذكر القصة ، أن ماراً في تلك البادية لحظ ضرام النيران ، واشتم بحاسته المنتبهة ، رائحة اللحم "المشوي " فتخيل أن وليمة تقوم هناك فأسرع الخطى نحو " الوليمة " لادراك نصيبه من اللحم .

وتشاء القصة أن يصل – قبل خفوت النار – وبوصوله كان وجهاً لوجه افراد وسيد القبيلة الذي كانوا يشهدون " شي " الضحايا فسألوه عن هويته وقبيلته . . فظهر لسوء الحظ أنه كان أيضاً ، من القبيلة الثانية فلم يرحم سيد القبيلة المنتقم ، لا خفة قدمه في المسير ، ولا شهوة بطنه المهلكة، فأمر رجاله بأن يقذفوا به إلى النار ، مع أخوانه الـ 99 فبلغت الضحايا بوصوله المئة عداً . وتذكر بهم (وارة) إلى اليوم وتعرف ! ! وهكذا قطعنا مع قصة (وارة) ، عشرات الكيلو مترات فنسينا مع

استعادتها وتصور وقائعها – الجفاف واليابس ، والمنظر الواحد ، من وجه البادية الأغبر . . لأعود من جهتي ، بعد تلاشي القصة إلى سؤال السيد نزال عن المدى الذي قطعنا ، والمدى الذي يبقى !

والحقيقة أني آمنت في تلك الساعات ، بالتجربة والاحساس ، أن الحياة ليست سوى تجدد مناظر وألوان . . سواء كانت تلك الألوان والمناظر جميلة أو بشعة ! . . المهم التجدد، وعدم جمود العين على اللون الواحد !

واحسست ، بالتالي ، أن السيد نزال تعمد أن يهون عليّ المسافة والطريق فقال لي :

الآن قد بلغنا (المناقيش) وانعش مني النفس ، بلوغنا المناقيش ولو إنني ، لم أدرك ما كانت في الحقيقة المناقيش . . ولو أن تلك المناقيش لم تكن تختلف في مجمل وضعها عما كنا قد اجتزناه من الطريق ، فالوجه كان باستمرار واحداً ، والبادية ما زالت في قحطها الغريب وصمتها العميق، وسكونها المرعب ليس فيها ما يدل على أن المناقيش تختلف ، فعلاً ، عن غيرها، أو أنها كانت من دون غيرها قطعة ذات صفة أو ميزة . .

لست أعطي ، مرافقي ، شيئاً جديداً لو نقلته معي تفصيلاً في كل الطريق .

فالساعات المتعاقبة من المسير كانت سيرة واحدة ، ولولا احساسي بدوران عجلات السيارة ، وملاحظتي بأنها كانت تقطع فوق السبعين كيلو متراً ، في الساعة – لقلت بأننا كنا دائماً في مكاننا ، رغم اجتياز المساحة الشاسعة ، لأن وجه الأرض لم يكن يختلف في شيء عن بعضه البعض.

ويجب أن اعترف في هذا المجال بقدرة العرب – والسيد نزال شاهدي ودليلي – على التغلب بالمعرفة والخبرة على الأراضي المترامية الأطراف ، والقطاعات

المتهادية الغامضة، وما زلت أعجب، رغم أن عيني نزال ، ولطالما حدقت بهما وهو يوجه المسير، استقامة أو انحرافاً ، كانت تتسع لاستيعاب الصحراء بنباهة وذكاء – ما زلت أعجب ، رغم ذلك ، كيف يمكن لنزال أو لسواه أن يتبين الطرق ، أو أن يميز الشعاب مع انها كلها – كما رأيت ، ولقد رأيت جيداً – كانت واحدة ، متماثلة ، متشابهة .

كما يجب أن اعترف للأخ عزت جعفر ، بمرانه العجيب على طريق البادية وهو قد كان في الاستقامة أو الانحراف ، تارة ، لكلمة نزال ، ومرافقاً لها تارة أخرى . . فإن كان لنزال ، مزيته التي اعجبت بها ، والمهمة مهمته ، والخبرة صنعته منذ السنين الطويلة. فان الحق ان اسجل لعزت ، ايضاً مزية الاكتساب وحسن المران .

في الوقت الذي فاجأني به نزال بقوله :

اننا على بعد قليل من (الفو) – في هذا الوقت، مع الاسف – وكأننا كنا على موعد – وقفت السيارة، وقد احس الأخ عزت بأن بها شيئاً . . وفي المعاينة السريعة تبين أنها كانت بحاجة إلى ماء . الماء كان موجوداً ولكن الوعاء الذي ينقل به إلى الخزان لم يكن موجوداً . .

وتطلعنا إلى ما حوالينا ، حائرين وقد يظن (مطالعي) أنها مسرحية مرتبة ، إن قلت ، بأننا لحظنا (خيمة سوداء) على البعد القريب . . وشخصاً يتبعه ولد صغير يقبل علينا وكان أول بشر رأينا – ولما وصل سأله عزت حاجتنا . فهرول الرجل دون انتظار ، وولده يتبعه دائماً ، إلى خيمتـه ليعود إلينا ، بعد الوقت الذي استنفذه ، كنا في ذلك المكان ، في الأراضي السعودية . والرجل يدعى (مرزوق) ، وهو من التابعية السعودية . وفيما كان الأخ عزت بمساعدة الرجل يفرغ الماء في الخزان ،

انصرفت إلى مداعبة الصغير، وقد حسبته طفلة ، فإذا به يبكي ، ويشهق في البكاء. فأسرع إليه والده ، كما كان عزت قد أكمل مجهوده فعاد إلينا . وسألت الصغير ، بحنو ، عما سبب بكائه ، فلم يفهمني – للهجتي – وكذلك والده لم يفهمني ايضاً ، فسأل عزت ، مستغرباً ، عن هويتي وبلدي فاجابه مازحاً – أنني . . اجنبي ولست بعربي !

فضحك مرزوق ضحكة ، رنت لها قطعة الصحراء في ذلك المكان وقال :

والله عرفته من كلامه أنه (اجنبي) وضحك عزت بدوره والتفت نحوي قائلاً ، بلهجتة البيروتية ، اتعجبك هذه النهاية ؟ ؟ .

وفعلاً ، كانت نهايتـي مع (مرزوق) مؤسفة وقد اخرجني بحكم قاس من حظيرة العروبة ، مرة واحدة . . ومع ذلك اهديته ما تيسر من السكاير ، كما اهداه عزت بعض الفاكهة ، له ولولده ايضاً .

أصبحنا فعلاً ، على مقربة من (الفو) حيث كنا نقصد، وتراءت لنا ، بعد سير قليل رؤوس الخيام – وكانت خيام الشيخ عبد الله المبارك وصحبه الضاربة هناك - .

وشعرت في تلك اللحظة . وكان قد انقضى على سيرنا نيف وخمس ساعات ، شعرت بفرحة الوصول وتحسست نفسي اعدل الوضع ، وارتب " الهندام " ! . . .

وفيما كنت ، وكنا كذلك إذا السيارة تتوقف ثانية ، بصورة مفاجئة . وكان وقوفها هذه المرة ، بسبب عطل طرأ على أحد الدواليب .

نزلنا جميعاً نفكر بالأمر – هل نصلح الدولاب ، فنبدله بسواه . والعملية شاقة ، متعبة . أم نترك السيارة في مكانها ونسير على الأقدام ، نحو الخيام الضاربة على مقربة !

ورجح لدينا التفكير الأول ، فانصرفنا إلى الاصلاح . . على قناعة بأن السيارة الثانية التي كانت معنا ، لابد وأن تصل ، وكانت تتبعنا ، فنترك السائق ينجز العمل وننتقل بها إلى المكان الذي نقصد !

وبينما كنا ننتظر السيارة الثانية . إذا بسيارة تقبل علينا من الأمام ، ومن جانب الخيام .

كان الشيخ عبد الله نفسه، يقود تلك السيارة . المصنوعة خاصة للصيد .

وكان سموه يراقب بمنظاره ، الطريق ، وقد استبطأ وصولنا فلحظ حالنا ، وشهد وقوفنا . فأتى بنفسه، لنجدتنا .

وتركنا السيارة لمن يعتني بإصلاحها . وسرنا جميعاً نحو الخيام !

أمر الشيخ عبد الله ، حال وصولنا بإعداد الشاي ، وذهبنا للأرتواء من الماء غسلاً وشرباً.

كان حنو الشيخ عبد الله بالغاً ، يسأل عن الطريق وسبب التأخر ، ويأسف لما واجهتنا من عقبات .

وجلس قبالتنا السيد سليمان موسى أحد اخوان الشيخ عبد الله المقربين ، يسأل ويلطف وكأن رغبته أن يزيل بيده لو استطاع ، كل تعب عنا .

كان الشاي قد حضر مع أنواع الجبن والكعك والحلوى وكأننا في قاعة أحد الفنادق الكبرى وقد لا يتوفر فيها ، على الشاي ، ما توفر في ما حضر.

تلك ا لساعة بعد الوصول ، اتخيلها الآن بكل دقائقها، كانت من أحلى الساعات . وهواء الصحراء كان يمر على الوجوه ناعماً منعشاً ! . وقرب الشيخ عبد الله ، ولا شك ، هو قرب النبيل يستحب ويطلب .

مع تعدد القصص وتشعب الأحاديث كان الليل يرخي سدوله، فيتحول نور البادية ، وصفاؤها، شيئاً فشيئاً إلى عتمة فظلام!

وبدأت اسراب الصيادين تعود. فوصلت سيارة، وثانية – والعادة أن يتفرق الجمع، في الصيد اقساماً ، يتجه كل قسم إلى ناحية - . وقد غنمت صيداً وفيراً . وتدلت الغزلان والحباري، من جوانب السيارتين .

(والحباري، الطير الذي يطلب في البادية . وهو أكبر من الدجاج قليلاً ويقارب ديك الحبش، ، ولم أكن قد تذوقت لحمه بعد ، ولكنني كنت قد سمعت عنه الشيء الكثير)

اقبل العائدون إلى مجلس الشيخ عبد الله يحدثونه – كالعادة المألوفة – عن كل ما رأوا . من وقت الذهاب حتى العودة . وكيف كان صيدهم – وأين شهدوا أغنى المناطق بالصيد فيصغي إليهم الشيخ عبد الله اصغاء كلياً ، وبانتباه ملحوظ ، ويعقب تارة بتهنئة ، وتارة أخرى بنكتة فيسر الجميع ويضحكون ، والمجلس يزهو ، وساقي القهوة يدير الفناجين .

عايشت في تلك الأمسية الجميلة العادات الجميلة ، وصفات البادية التي كانت على التاريخ مضرب الأمثال. لقد كانت " خيامنا " الممتدة اشبه بقرية صغيرة في محيط البادية ، ولكنها قطعة تنبض بالحياة . جمعت كل ما يجب أن تجمع من وسائل الراحة فكانت الكهرباء – ومع الرحلة اصطحب محرك كهربائي خاص – تضيء بلمباتها الصيوان والخيام ، وتنشر اشعاعها إلى بعيد، كما كان الراديو يصلك باخباره ، واغانيه من أطراف الدنيا . . وعلى مقربة من الصيوان كانت تشتعل أكوام (الرمث) – عشب يابس ، هو العشب الموجود في البادية – فتتصاعد النيران إلى العلى ، وتغذى باستمرار ، بتواصل الوقود ! لئن كانت العادة القديمة ارشاد

الضيف والسائرين في الصحراء ، باشعال النار . فإن الشيخ عبد الله حرص على العادة الطيبة، واضفى عليها نور الكهرباء – ليأتي ارشاده ضعفاً ، ودعوته مزدوجة – فأبقى على القديم المستحب ، وأرفقه بالجديد المستجد .

واقبل على نار (الرمث) ، ونور الكهرباء ضيوف أربعة ، وثلاثة كانوا من الجوار القريب . وآخر كان يجوب أطراف الصحراء منذ احد عشر يوماً ، باحثاً ومفتشاً عن جمل له قد ضاع فلم يعثر عليه ، ولم يهتد ، فجأء يمضي ليله، عند الخيام ، ليتابع بحثه في الصباح.

كانت الساعة قد شارفت على الثامنة مساء . وقد أعلن الخدم جهوز العشاء . وهنا فقط أبدى الشيخ عبد الله قلقه وكان قد كتمه حتى تلك الساعة. وسبب قلقه كان تأخر (العيال) عن العودة . و(العيال) تعبير يعني الشباب من الشيوخ . وكان ثلاثة منهم ، هم الشيخ عبد العزيز آل محمد الصباح ، والشيخ جابر العبد الله الصباح ، والشيخ ناصر قد توجهوا ، جماعة ، للصيد فطال تأخرهم . ولم يكن التأخر حتى تلك الساعة بالأمر الطبيعي . (وفي تلك الآونة فقط فهمت أن الشيخ عبد الله قد تخلف عن الذهاب إلى الصيد ليبقى بانتظارنا) . وهنا طلب الشيخ عبد الله إلى أحد أفراد حاشيته أن يوافيه " بعصادية " – وسألت عن العصادية فقيل لي أنها سهم ناري – اطلقها في الفضاء فنشرت في الأعالي ، نوراً أزرق بخيوط متواصلة ، ثم بعد قليل ، اطلقت ثانية ثم ثالثة.

وبقينا في الانتظار وقد ساد المجلس صمت كان يقطعه بين الدقيقة والأخرى حديث مقتضب . لم يكن قد مضى كثير – لحسن الحظ – اذ ظهر من البعد دائرتا نور قرر الجميع أنه نور سيارة ، ثم تأكد ذلك باقتراب هدير المحرك، فأسرع الشيخ

عبد الله ، وأسرع معه رجاله لاستقبال الشيوخ العائدين . كانت فرحته وفرحة الجميع ظاهرة بمرآهم وعودتهم . واقبلوا على المجلس ليرووا حديث ما وقع لهم – وقد ضلوا مع هبوط الظلام الطريق – ولم يرشدهم ، في العودة ، وتحديد المكان سوى نور (العصاديات) .

قمنا إلى العشاء حول أطباق الرز تغمرها لحوم الحباري والغزلان . وتعمد الشيخ عبد الله أن يكون مجلسي إلى جانبه فكان يهيل بيده الكريمة على صحني بقطعات اللحم . . ثم يجاريه بذلك اقتداء كريماً من كان حوله، فتتكدس أمامي قطع اللحم تكديساً ، كل ما غابت قطعة تساقط مكانها عديد منها . . حتى أكلت في ذلك العشاء – والحباري تؤكل فعلاً بشهية – ما انساني حرماني من كفاية اللحم في عدة سنوات الحرب ، ابان وجودي في ألمانيا.

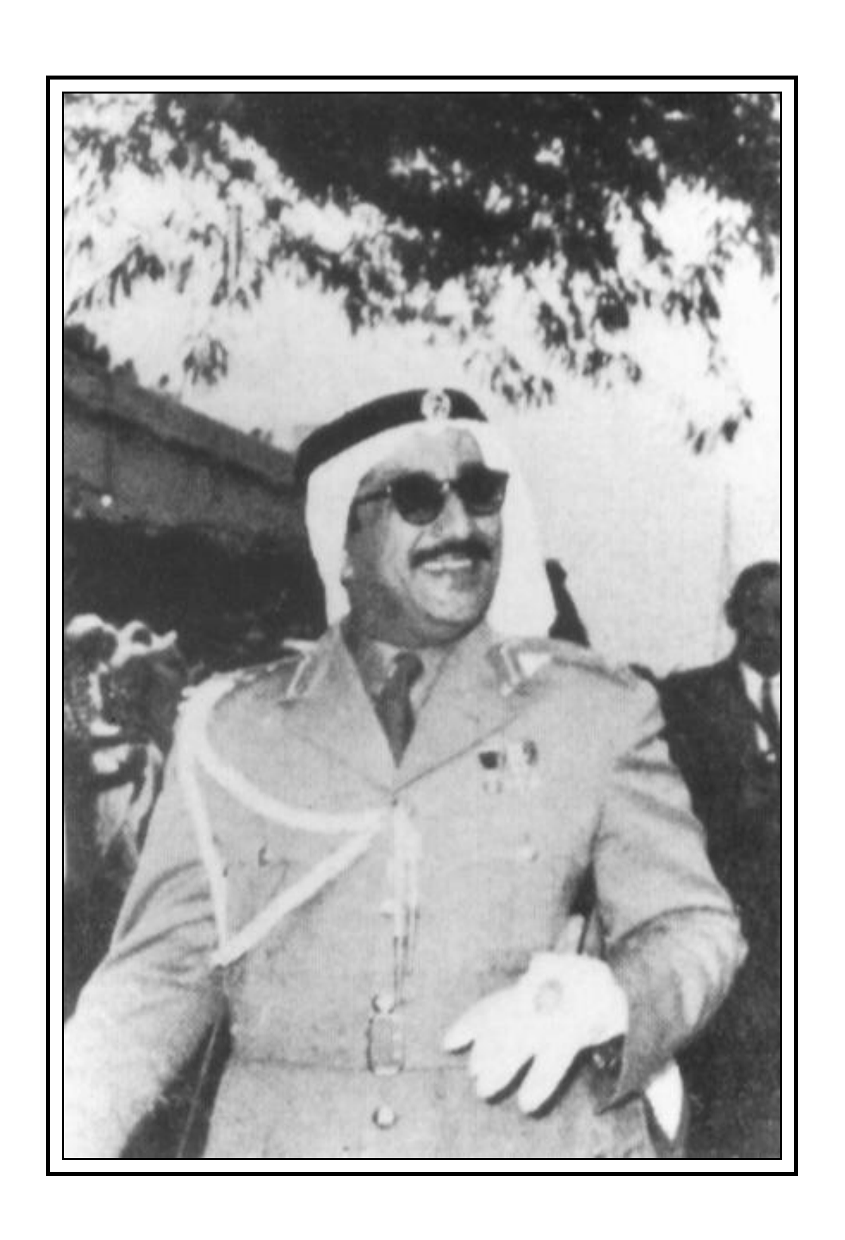
لم تطل السهرة بعد العشاء . وكان التعب اخذ منا مأخذه وبرد الصحراء متزايد – وليالي الصحراء قارسة في بردها –

وقبل أن نبدي الرغبة في الاستئذان ، سبقنا الشيخ عبد الله إلى الإشارة بضرورة الراحة ، بعد تعب الطريق . وصحبنا من أرشدنا إلى الخيمة التي اعدت لمنامنا . وقد تزودت ببطانيات الصوف ، واعتلاها فرو لكل منا .

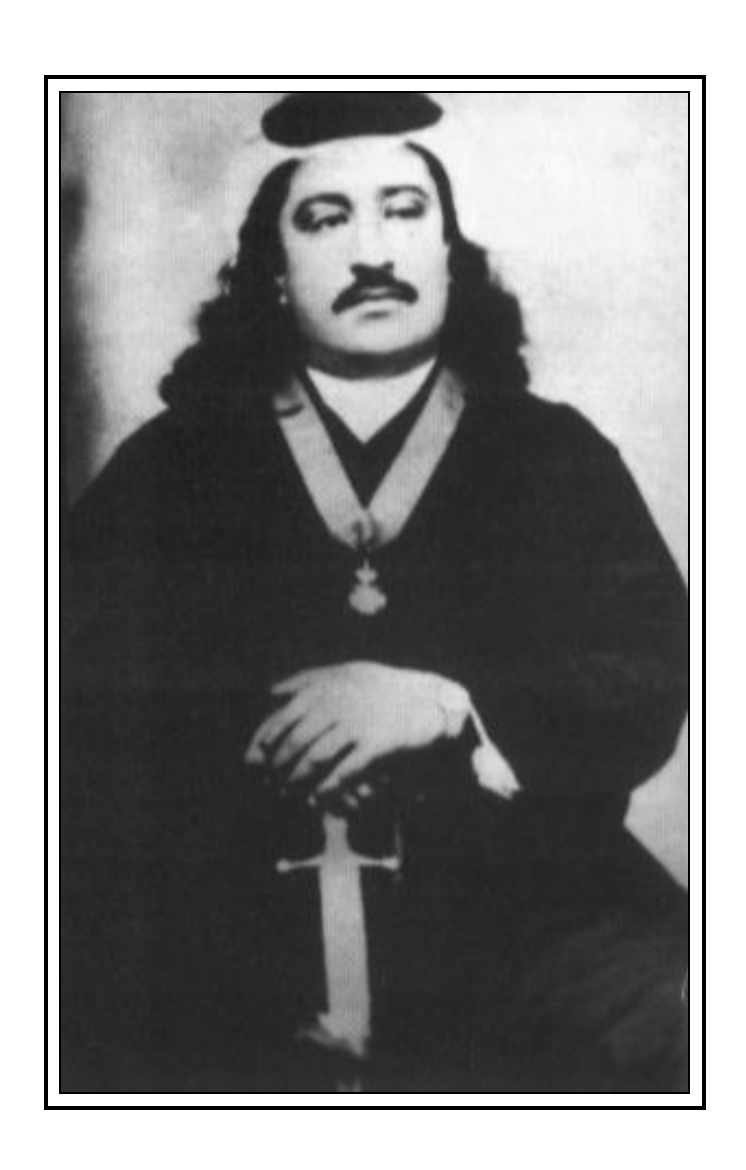
وما هي إلا دقائق حتى غفونا من أفضل رحلة هيئت ، وأجمل ذكرى لليلة في الصحراء.

من ملامح الوجه الكريم


يا فارس الفرسان . يا ابن مبارك
يا من حميت مداخلاً، وثغورا
البحر أنت...... يفيض عن شطآنه
قدر الكبير بأن يكون كبيراً

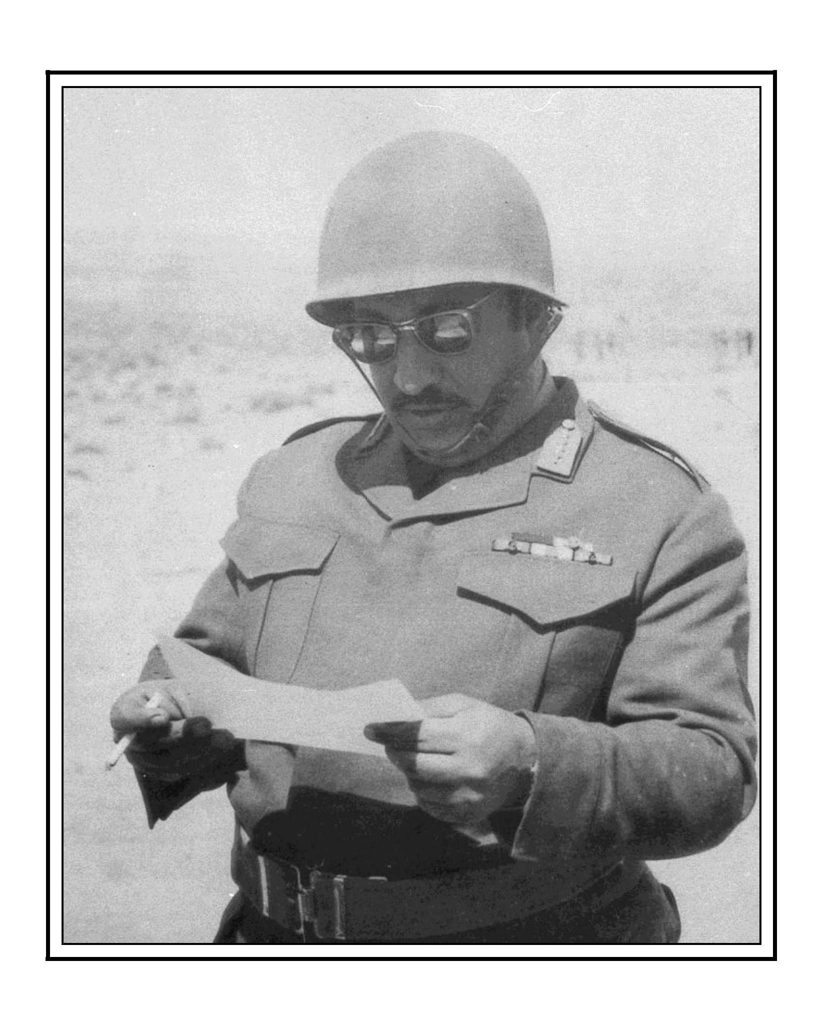






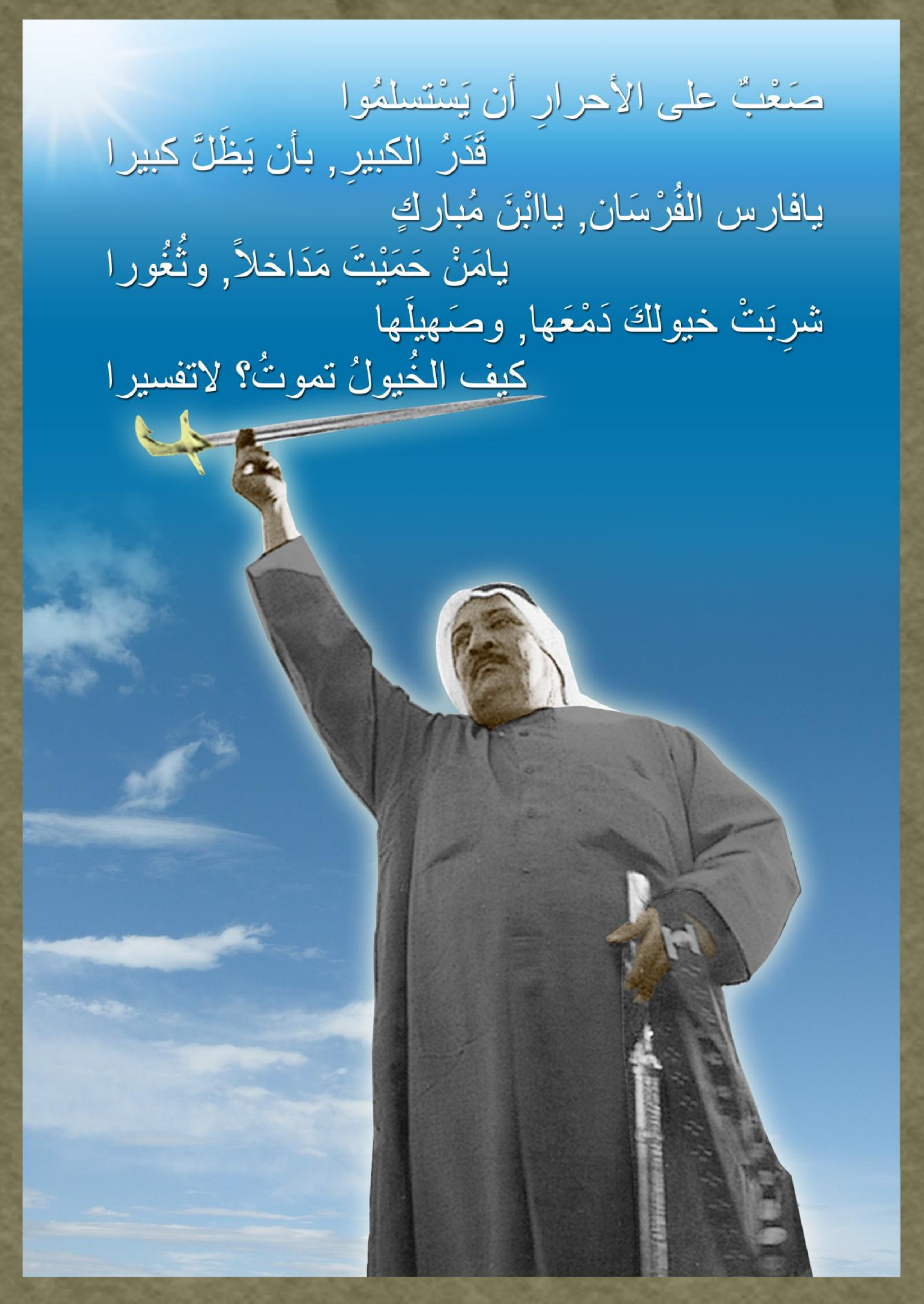








المحتويات


صَعْبٌ على الأحرارِ أن يَسْتسلمُوا
قَدَرُ الكبيرِ, بأن يَظَلَّ كبيرا
يافارس الفُرْسَان, ياابْنَ مُباركٍ
يامَنْ حَمَيْتَ مَدَاخلاً, وثُغُورا
شرِبَتْ خيولكَ دَمْعَها, وصَهيلَها
كيف الخُيولُ تموتُ؟ لاتفسيرا